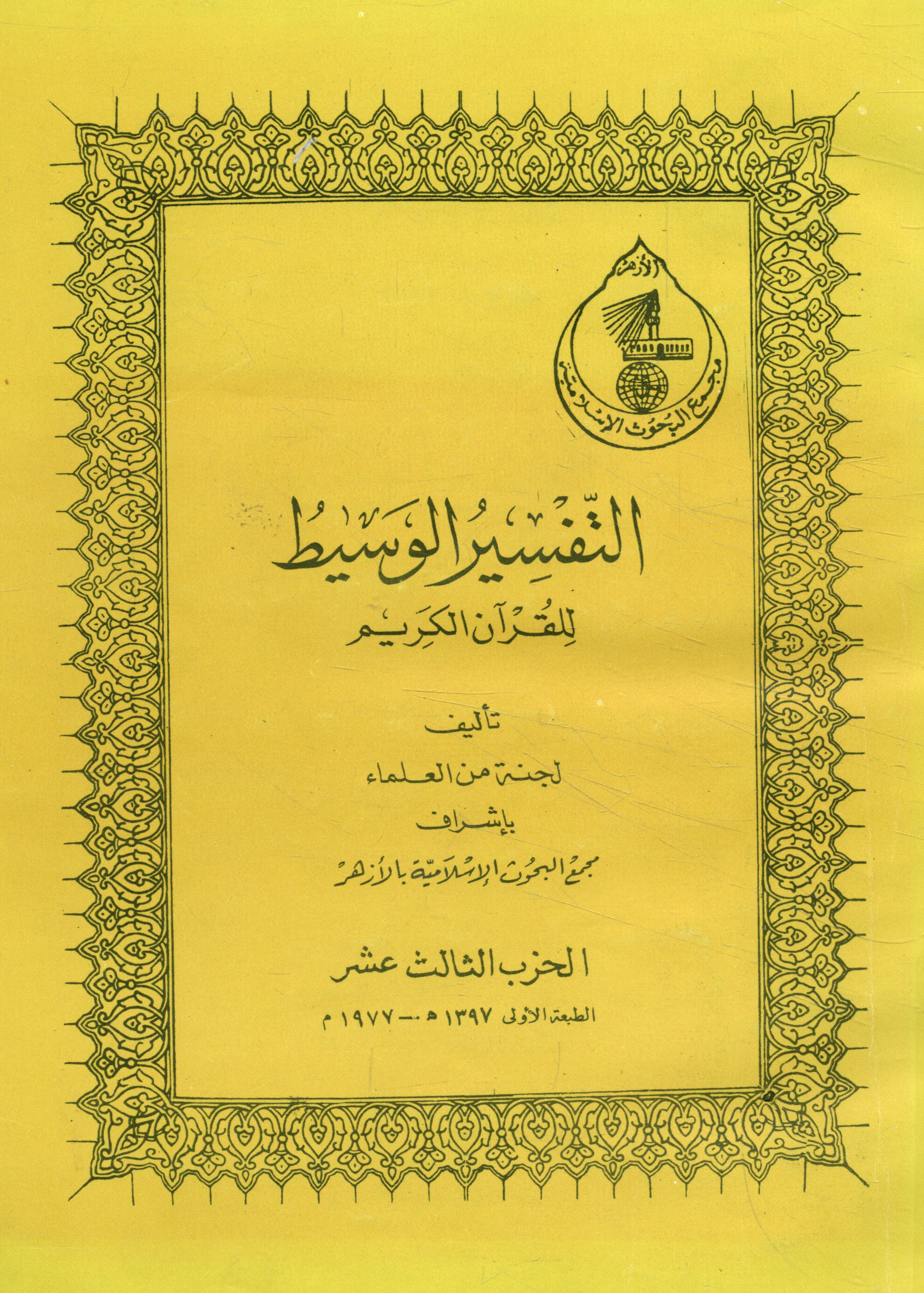


التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

الحزب الثالث عشر

الطبعة الأولى ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

الحزب الثالث عشر

الطبعة الأولى ١٣٩٧ هـ — ١٩٧٧ م

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٧٧

(لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾) .

المفـردات :

(قِسِّيسِينَ) : جمع قِسِّيس ؛ وهو رئيس ديني مسيحي .

(ورُهْبَانًا) : الرهبان ؛ جمع راهب ، وهو المتبتل ، المنقطع للعبادة وحرمان النفس من الاستمتاع بالزوج والولد.

(تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ) : أي تمتلئ أَعينُهم بالدمع حتى يتدفق منجوانبها ؛ لكثرته .

التفسير

٨٢ - (لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ...) الآية .

بعد أَن أَقام الله الحججَ القاطعةَ على أَهل الكتاب، المعاندين المكذبين . وبعد أَن ذكر

فضائحَهم ومخازيَهُم - ذكر تعالى فى هذه الآيات . أحوالَ اليهود والنصارى فى عداوتهم ومحبتهم للمؤمنين . كما بيَّن حالَ المشركين .

سبب النزول :

تعددت الروايات فى سبب نزول هذه الآيات . ولكنها تلتقى فى أن بعض طوائف النصارى : استمعوا إلى القرآن الكريم ، فتأثَّرت به نفوسهم ، وفاضت أعينهم ، فأَعلنوا الإسلام .

ويذهب جمهور المفسرين : أنها نزلت فى النجاشى - ملك الحبشة - ومَن معه من القسيسين والرهبان .

وجميع الروايات : تدل على أنه أسلم هو ومن معه .

وكُتُبُ السيرةِ ، تدل على أن قيصر عظيم الروم - وهو مسيحى - تلقَّى دعوةَ الرسول صلى الله عليه وسلم ، فى رِفق وأناة . وأنه - لولا خشيته على مُلْكه - لاستجاب للإسلام .

كما تدل كتب السيرة ، على أن المقوقس - زعيم الأَقباط فى مصر - تَلَقَّى دعوةَ الرسول صلى الله عليه وسلم ، فى مَوَدَّةٍ ولِين . وأَرسل إليه بعض الهدايا القيِّمة .

وكان تَلقِّى الناس للدعوة الإسلامية متنوعًا بتنوع عقائدهم وطبائعهم .

وأبرز الطوائف التى استقبلت هذه الدعوة الجديدة :

أَولا - اليهود : وقد استقبلوا الإسلام بالعداوة والبغضاء ، مع أَن ملَّتَهم تقوم على التوحيد ؛ لأَن تطوّر اليهودية ، وعبَثَ اليهود بكتابهم - أَبْعَدَ اليهودَ عن أُصول عقيدتهم ، وجعلها قائمة على التعصب الأَعمى والأَنانية الحمقاء ؛ حيث زعموا أَنهم : شعب الله المختار وأَنهم لهذا لن يدخلوا النار مهما فعلوا إلا أَياما معدودات . فاسترسلوا فى شهواتهم ونزواتهم . فقتلوا الأَنبياءَ . واستباحوا الحُرُماتِ . وأَكلوا أَموالَ الناس بالباطل . وأَسرفوا فى التمرد والعصيان ، مما مسخ فِطَرَهم الإنسانية إلى غرائز القردة والخنازير ، وعبدة الطاغوت .

ولهذا – لما جاء الإسلام – عادوه بألوان العداء ، وشنوا عليه الحروب الطاغية : بقوة السلاح ، أو بالدسائس والمؤامرات ، أو بمحاولة تشويهه بما دسُّوا فيه من الإسرائيليات : « حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ »[١] ولا يزال هذا دأبهم حتى الآن . ولهذا صدرتهم الآية ، وصرحت بهم .

ثانيًا – المشركون : وهم كفار مكة وأمثالهم . فقد قاوموا الدعوة الإسلامية مقاومة عنيفة ؛ لأن الإسلام يحدُّ من طغيانهم وعصبياتهم الحمقاء ، وما اعتادوه من استعْلاء وكبرياء وهم – إلى هذا – تشتعل نفوسهم بالحسد والبغضاء للرسول صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : « لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ »[٢] وجاهروا المسلمين بالعداء ، حتى قالوا : « أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا »[٣] وما زالوا بهم تعذيبا واضطهادا ، حتى أخرجوهم من ديارهم ، وصادروا أموالهم .

ثالثا – النصارى : أنكر الإسلام على النصارى إيمانهم بالفداء ، وبحدوث الصلب وعقيدة التثليث ، ولكنه مع هذا أنصف المسيح – عليه السلام – ورفعه إلى مكانته السامية الجديرة به ، ونادى بطهارة السيدة مريم وأفضليتها على النساء .

والمسيحية – فى كتابهم[٤] – تقوم على التسامح ، ومقابلة الإساءة بالإحسان ، وعلى النفور من العدوان .

كما تقوم المسيحية أيضا : على الحد من الشهوات والمطامع ، وحب الاستعلاء وهي – فى هذا – تقارب الإسلام .

ونظرا لأن هذه المبادئ تدعو إلى المسامحة ، فإنهم لم يقابلوا الإسلام بالعداوة والبغضاء ، كما فعل اليهود .

---

(١) البقرة ، من الآية : ١٠٩ (٢) الزخرف ، من الآية : ٣١

(٣) الأنعام ، من الآية : ٥٣

(٤) ورد فى إنجيل لوقا : ٦ / ٢٧–٢٩ : « أيها السامعون أحبوا أعداءكم ، أحسنوا إلى مبغضيكم ، باركوا لاعنيكم ، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم . من ضربك على خدك فاعرض له الآخر أيضا ... » .

وموقف النجاشى ، والمقوقس ، وهرقل – من الدعوة الإسلامية – معروف . والنصارى – لا النصرانية – لم يحاربوا الإسلام ، إلا بعد أن خرجوا على تعاليم النصرانية دينهم ، وبعد أن استبدت بهم المطامع والشهوات ، فَشَنُّوا الحروب البيزنطية ، والحروب الصليبية ، والحروب الاستعمارية على الإسلام والمسلمين . والنصرانية من كل هذا براء .

(لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا) :

شدة العداوة من اليهود : قائمة – أساسا – على تعصبهم واستعلائِهم ، وكراهتهم خروج النبوة من ولد إسرائيل ، ثم على تَرَسُّلِهِم فى شهواتهم ، مما أدى إلى تمردِهم على الأنبياء ، وتكذيبهم ، وقتل المئات – بل الآلاف – منهم فى هذا السبيل .

وأشد ما لاقى الرسول صلى الله عليه وسلم – من الأذى والعنت والعداء – كان من يهود الحجاز فى المدينة وما حولها ، ومن مشركى العرب ، ولا سيما مشركى مكة وما حولها ، ولكنَّ مشركى العرب – على جاهليتهم – كانوا أرقَّ من اليهود قلوبا ، وأعظم مروءة وإيثارًا .

ولهذا بدأ باليهود – كما أسلفنا – فى ترتيب العداء للإسلام . فقد حاربوا الإسلام بالسلاح ، كما حاربوه بالكيد والتآمر ، ومحاولة تشويه تعاليمه السامية ، بما دَسُّوا فيه من إسرائيليات ، فضلا عما اخْتُصُّوا به من قتل بعض الأنبياء بغير حق ، وإيذائهم لبعضهم الآخر ، واستحلالهم أكل أموال غيرهم بالباطل من الربا والرشوة ، مما يزخر به تاريخهم .

(وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى) :

أى لتجدن يا محمد ، أقربَ الناس محبةً ومودةً لك وللمؤمنين : الذين قالوا إنا نصارى .

وقد رأى النبى – صلى الله عليه وسلم ، ورأى صحابته من نصارى الحبشة ، وملكهم – حُسْنَ الحماية والرعاية وطيبَ المودة للذين هاجروا إلى الحبشة ، حيث عاشوا فى أمن وسلام ولم يسلموهم إلى أعدائهم المشركين ، الذين استعْدَوْا عليهم ملك الحبشة ، وحاولوا

أن يوغروا صدره ، ويوقعوا بينه وبين المهاجرين ، من المؤمنين : بأنهم ما جاءوا إلا ليفسدوا عليه قومه .

ولكنه لم يستجب لهم وأكرم المسلمين .

ثم بين سبحانه وتعالى ، سبب مودة النصارى للمؤمنين بقوله :

(ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ) :

وقد تضمن ذلك وصفهم بأن فيهم العلمَ والعبادة ، والتواضعَ والزهد .

فسبب مودة النصارى ومحبتهم للمؤمنين : أن منهم قسيسين يتولون رعاياهم بالتعليم الدينى ، ويتعهدونهم بتهذيب الأخلاق ، ويربونهم على الآداب والفضائل .

كما أن منهم – كذلك – رهبانا : عُبَّادًا يضربون لهم المُثُلَ فى الزهد ، والإعراضِ عن زخرف الدنيا وزينتها ، ويُكثِرُون فى نفوسهم الخوف من الله تعالى ومراقبته ، والانقطاع للتبتل والعبادة .

كما أن من أسباب مودتهم للمسلمين : التواضعَ ، وأنهم لا يستكبرون عن الخضوع والإذعان للحق ، متى ظهر لهم .

٨٣ – (وَإِذَا سَمِعُوا مَآ أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ . . .) الآية .

قيل : إنه كلام مستأنف . وقيل : إنه معطوف على قوله : (وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ) . فهذه الآية متصلة بما قبلها .

والمعنى : ولتجدن أقربهم مودة للمؤمنين ، أولئك الذين قالوا إنا نصارى : (ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا ، وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ) وَأَنَّهم :(إِذَا سَمِعُوا مَآ أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ) عند سماع القرآن وهم الذين استجابوا للإسلام فآمنوا عندما سمعوا القرآن ، لِما عرفوا من الحق ، الذى جاء فى كتابهم عن محمد صلى الله عليه وسلم ، وعن دينه .

وفى تفسير الخازن ؛ قال ابن عباس : يريد النجاشي وأصحابه ، لَمَّا قرأ عليهم جعفر ابن أبي طالب سورةَ مريم . قال : فما زالوا يبكون حتى فرغ جعفر من القراءة .

(مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ) :

أى تفيض عيونهم من الدمع ، من أجل ما عرفوه من الحق[1] .

وهذا شأن العلماء المخلصين ، كما قال تعالى : « اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ . . . »[2] الآية .

(يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ) :

يقولون – بعد أن اطمأنت قلوبهم للإسلام – ربنا آمنا بنبيك محمد ورسالته ، فتقبل منا ، واجعلنا مع أمة محمد الذين سيشهدون على الأمم يوم القيامة ، كما قال تعالى : « وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ . . . »[3] الآية .

نقل هذا عن ابن عباس ، وابن جريج .

وقال الحسن : الذين يشهدون بالإيمان .

وقال أبو على : الذين يشهدون بتصديق نبيك وكتابك .

٨٤ – (وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ) :

وأَيُّ شيء يصرفنا عن الإيمان بالله ، وتصديق ما جاءنا من الحق بعد ما تبين لنا صدق الرسول ، وصحة رسالته – أى لا شيء يصرفنا عن ذلك ! ! .

ونظير هذا الأسلوب قوله تعالى : « وَمَالِيَ لَآ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي »[4] .

والمراد بالحق : القرآن والإسلام .

---

(١) وقد جاءت « مِنْ » للتعليل – هنا – كما فى قوله تعالى : « مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا » نوح ، من الآية : ٢٥ ، وفى قول الفرزدق فى على زين العابدين رضى الله عنه :

يغضى حياء ويغضى من مهابته فما يكلـم إلا حين يبتسم

(٢) الزمر ، من الآية : ٢٣

(٣) البقرة ، من الآية : ١٤٣

(٤) يس من الآية : ٢٢

والمراد من (الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ) أُمةُ محمد صلى الله عليه وسلم - أى وكيف تنصرف عن الإيمان ، ونحن نطمع أن يُدْخِلَنا رَبُّنا مع القوم الصالحين ، أى من جملتهم !

٨٥ - (فَأَثَابَهُمُ اللهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ الْمُحْسِنِينَ) :

أى فجازاهم الله وكافأهم - بسبب قولهم : ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين - وأسعدهم بما أَعدَّ لهم من جنات ، وصفها الله تعالى ، بأن الأنهار تجرى من تحت قصورها وأشجارها ، كما وصفهم بالخلود والبقاء فى نعيمها فلا يزول عنهم النعيم ولا يفارقونه .

وقد رتب الله تعالى الجزاءَ المذكور ، على قولهم : (رَبَّنَا آمَنَّا) وما اقترن به ، مما يدل على كمال الإخلاص : من بكائهم عند سماع القرآن ، وقولهم : (فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ . وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ . . .) . إلخ .

ثم ختم الله الآية بقوله :

(وَذَٰلِكَ جَزَآءُ الْمُحْسِنِينَ) : ليبين أن هذا الجزاءَ الكريم ، ليس قاصرا على من نزلت الآية بسببهم ، بل هو يعمُّ كلَّ من أحسن إحسانهم .

٨٦ - (وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ) :

فى هذه الآية ، يبين الله تعالى ، سوءَ مصير الكافرين ، بعد بيان حسن مصير المؤمنين وبضدها تتميز الأشياءُ .

والمعنى : والذين كفروا - من اليهود والنصارى والمشركين ومن لا دين لهم - ودأبوا على التكذيب عنادا واستكبارا ، بعدما وضح الحق ، وقامت الأدلة والحجج على صدق الرسول محمد صلى الله عليه وسلم .

(أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ) :

أى أُولئك هم أصحاب النار وسُكَّانها المقيمون بها ، لا يبرحونها .

والجَاحِم والجَحِيم : هو ما اشتدَّ حَرُّه .

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾) .

التفسير

٨٧ - (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَآ أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ . . .) الآية .

الربط : لما مدح الله مَن آمن من علماء أهل الكِتاب ، ناسب أن يؤدبهم بأدب الإسلام فبين لهم : أن الدين الإسلامى ، لا يحرم الطيبات ، التى كانوا يحرمونها على أنفسهم ، حينما يسلكون سبيل الرهبانية . وإنما هو دين يحرم الاعتداء والتجاوز .

وجاء ذلك بأُسلوب عام لجميع المؤمنين ، حتى يتأدّبَ به كل مؤمن .

سبب النزول :

روى البخارى ، عن أنس ، قال : جاء ثلاثة رَهْطٍ[1] إلى بيوت أزواجِ النبى صلى الله عليه وسلم ، يسأَلونَ عن عبادته ، فلما أُخبروا - كأنهم تَقالُّوها - فقالوا : وأين نحن من النبى صلى الله عليه وسلم ؟ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر :

فقال أحدهم : أَمَّا أَنَا فَإِنِّى أُصَلِّى الليلَ أَبَدًا . وقَالَ آخرُ : أَمَّا أنا فَأَصُومُ الدَّهْرَ ولا أُفْطِرُ . وقال آخرُ : أَمَّا أَنَا فَأَعْتَزِلُ النِّسَاءَ ، ولَا أَتزَوَّجُ أبَدا .

فجاء رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « أَنتُمُ الَّذِينَ قُلْتُم : كَذَا وَكَذَا ؟ أَمَا وَاللهِ ، إِنِّى لَأَخْشَاكُمْ لِلهِ ، وَأَتْقَاكُمْ لِلهِ... لَكِنِّى أَصُومُ وَأُفطِرُ ، وَأُصَلِّى وَأَرْقُدُ ، وَأَتزَوَّجُ النِّسَاءَ . فَمنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِى فَلَيْسَ مِنِّى » .

---

(١) إضافة ثلاثة إلى رهط : بيانية ، أى ثلاثة هم رهط . والرهط : يطلق على العدد من ثلاثة إلى تسعة .

(يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَآ أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ) :

أى لا تمنعوا – أيها المؤمنون – أنفسكم مما طاب ولذَّ من الطعام ، الذى أحله الله لكم .

(وَلَا تَعْتَدُوا) :

أى لا تتجاوزوا الحدَّ بتحريم حلال ، أو تحليل حرام ، أو إسراف فى طعام . قال تعالى : « يَابَنِى آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ »[1] .

٨٨ – (وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلَالًا طَيِّبًا . . .) الآية .

أى تمتعوا بأنواع الرزق ، من أكل وشرب ولباس ، وغير ذلك من الطيبات ، التى أحلها الله تعالى .

وخص الأكل بالذكر ؛ لأنه معظم مقاصد الرزق .

وقد دلت هذه الآية – وسابقتها – على أن الإسلام يُعْنَى بالأجسام ، كما يُعنى بالأرواح .

(وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِى أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ) :

أى اجعلوا أنفسكم فى وقاية من غضب الله ، الذى أنتم به مؤمنون . فلا تتجاوزوا ماشرعه الله لكم .

وعن الحسن البصرى رضى الله عنه : إن اللهَ أدَّب عبادَه فأحسن أدبهم ، فقال : « لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ »[2] . ماعاب الله قوما وسَّع عليهم الدنيا فتنعموا وأطاعوا ، ولا عَذَر قوما زواها عنهم فعصوْه .

وعنه أنه قيل له : فلان لايأكل الفالوذج[3] ، ويقول : لا أؤدى شكره . قال : أفيشرب الماء البارد ؟ قالوا : نعم . قال : إنه جاهل . إن نعمةَ الله عليه فى الماء البارد ، أكثرُ من نعمته عليه فى الفالوذج .

والمعروف من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم : أنه كان يأكل ماوجده . . . فتارة يأكل أطيبَ الطعام ؛ كلحوم الأنعام والطير والدجاج . وتارة يأكل أخْشَنَهُ ؛ كخبز الشعير

(١) الأعراف ، الآية : ٣١ (٢) الطلاق ، من الآية : ٧ (٣) حلواء تصنع من الدقيق والعسل والماء .

بالملح أو بالزيت أو بالخل ، وأحيانا يجوع ، وأحيانا أخرى يشبع ، فكان – فى كل ذلك – قُدْوَةً للموسر وللمعسر على السواء .

وَلْيُعْلَمْ : أن التمتُّعَ بالطيبات من الرزق ، مشروعٌ فى جميع الرسالات . قال تعالى : « يَاأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ »[1] .

(لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَـٰنَ ۖ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيْمَـٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَاحْفَظُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾) .

المفـردات :

(بِاللَّغْوِ) اللغو فى اليمين : الحلف من غير قصد القَسَم .

(بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ) أصل العقد : نقيض الحل . فَعَقْد الأَيمان وتعقيدها : توكيدها بالقصد والتصميم .

(فَكَفَّارَتُهُ) أصل الكفارة : من الكَفْر . وهو : الستر والتغطية ، ثم صارت – فى اصطلاح الشرع – اسمًا لأعمال تكفِّر – أى تمحو – بعض الذنوب .

(مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ) : الأَوسط ؛ المعتدل من كل شىء . والمراد هنا : الأَغلب من الطعام ، الذى هو وسط بين الدُّون الذى يُتَقشَّفُ به ، وبين الأَعلى الذى يُتوسَّع به .

(أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ) : أى إعتاق رقيق مملوك له .

---

(١) المؤمنون ، الآية : ٥١

التفسير

٨٩ - ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَانِكُمْ ... ﴾ الآية .

الربط وسبب النزول :

روى ابن جرير ، عن ابن عباس ، قال : لما نزلت : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَآ أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ ... ﴾ فى القوم الذين كانوا قد حرَّموا النساءَ والنَّوْمَ واللحْمَ على أنفسهم ، قالوا : يارسول الله ، كيف نَصنع بأَيمانِنا التى حلفناها ؟ فأَنزل الله تعالى : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَانِكُمْ ... ﴾ الآية .

وبهذا تتصل الآية بما قبلها .

ومعنى قوله : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَانِكُمْ ﴾ أى لا يؤاخذكم الله بالأَيمان التى تحلفونها بلا قصد ، كما يقول الرجل فى حلفه - من غير قصد ولا نية - لا والله ، وبلى والله ، مما يجرى على الأَلسنة من غير قصد . فلا مؤاخذة على هذه الأَيمان : بكفارة فى الدنيا ، ولا بعقوبة فى الآخرة ؛ لأَنها عادة لسان .

وقال مجاهد : هو الرجل يحلف على الشىء يرى أَنه كذلك وليس كما ظن . وهو مذهب أَبى حنيفة رحمه الله تعالى .

﴿ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ ﴾ :

ولكن الله يؤاخذكم بما يصدر عنكم من الأَيمان التى أَكدتموها بالقصد والتصميم .

﴿ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ :

فالذى يُكفِّرُ عَقْدَ اليمين - إذا أُريد الحنث فيها ممن حلف أنه سيفعل كذا ، أَو حلف أَنه لن يفعل كذا ، ثم راجع نفسه فرأَى أَن تنفيذ اليمين سَيَحْرِمُهُ خيراً كثيرا - فعليه أَن يَنْقُضَ يمينَهُ ، وأَن يُكفِّرَ عنها . لما جاءَ فى الصحيحين: عن أَبى موسى الأَشعرى ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إِنِّى وَاللهِ - إِنْ شَاءَ اللهُ - لَا أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ فَأَرَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا ، إِلَّا كَفَّرْتُ عَنْ يَمِينِى ، وَأَتَيْتُ الَّذِى هوَ خَيْرٌ » .

ومن يحلف كاذبا متعمدا ، فعليه ردُّ الحقوق إلى أصحابها ، إذا ترتب على يمينه ضياع حق ثابت . وعليه أيضا الكفارة المبينة فى الآية .

ويمين الكاذب المتعمد تسمى شرعًا : اليمين الغموس .

وسميت بذلك ؛ لأنها تغمس صاحبها فى النار . وهى : من الكبائر التى ورد فيها وعيد شديد .

أخرج البخارى عن عبد الله بن عمرو قال : « جاء أعرابى إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسولَ الله ، ما الكبائر؟ قال : الإشراكُ بِاللهِ . قال : ثم ماذا ؟ . قال : عُقوقُ الوالدين. قال : ثم ماذا ؟ قال : اليمينُ الغَمُوسُ . قلتُ : وما اليمينُ الغموسُ ؟ قال : الَّتِى يُقْتَطَعُ بِهَا مَالُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ هُوَ فِيهَا كَاذِبٌ » .

وأخرج مسلم عن أبى أُمامة أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : « مَنِ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ ، فَقَدْ أَوْجَبَ اللهُ لَهُ النَّارَ وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّة فقال رجل : وإن كان شيئًا يسيراً قال : وَإِنْ كَانَ قَضِيبًا من أَرَاك » .

فعلى كل مسلم : أن يتجنب الحلف بالله كاذبًا ، ، حتى لا يستحق هذا الوعيد الشديد .

أما يمينُ المُكْرَه ؛ فلا إثم فيها . وكذا لَا كفارة فيها فى بعض المذاهب .

والحلف لا يكون إلا بالله تعالى ، أو باسم من أسمائه ، أو صفةٍ من صفاته .

قال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ أَوْ لِيَصْمُتْ »[1] .

وكفارة اليمين إذا حنث فيه :

١ - إطعام عشرة مساكين وجبةً واحدةً لكلٍّ منهم من الطعام الغالب الذى يأكله أهلوكم فى بيوتكم لا من أَرْدَئِه ولا من أَجْوَدِه .

فمن كان أكثر طعامه وطعام أهله خبزَ البُرِّ ، وأكثرُ إدامه اللحمَ بالخضر أو بدونها ، فلا يجزئ ما دون ذلك . والأعلى يجزئ على كل حال ، لأنه من الوسط وزيادة .

وأجاز أبو حنيفة إطعام مسكين واحد عشرة أيام .

---

(١) رواه ابن عمر فى كتاب الشهادات : باب كيف يستحلف . هداية البارى : ٢-٢٢٧

٢ ـ كسوة عشرة مساكين : والكسوة تختلف باختلاف البلاد والأزمنة ـ كالطعام ـ فيجزىء من غالب ما يكسو به أهله ، لا من الأردإ ولا من الأجود . والأعلى يجزئ على كل حال ، كما سبق فى الطعام .

وفى الإطعام والكسوة خلاف بين الفقهاء فمن أراد معرفته واستيفاءه فليرجع إليه فى كتب الفقه .

٣ ـ تحرير رقبة : أى إعتاق إنسان رقيق ذكر أو أنثى . وقد يعبر أحيانا عن ذلك بفكِّ رقبة كقوله تعالى : « فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ . وَمَآ أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ . فَكُّ رَقَبَةٍ »[1] .

ولا يشترط أن تكون الرقبةُ مؤمنةً عند أبى حنيفة ، فإنه يجزئ عنده عتق الكافرة . خلافا للشافعى ومالك وأحمد . فقد اشترطوا الإيمان ، قياسا على الكفارة فى القتل .

(فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ) :

أى فمن عجز عن واحد من الثلاثة المتقدمة ، فعليه أن يُكَفِّرَ بصوم ثلاثة أيام : متتابعات عند أبى حنيفة . ولا يشترط التتابع عند الشافعى وغيره ، وهو أيسر . فإن عجز عن الصوم ـ لمرض ـ صام عند القدرة ، فإن لم يقدر فأمره مفوض إلى الله تعالى : يُرْجَى له عَفْوُ الله ورحمته ـ إذا صحت نيته .

والاستطاعة : أن يكون ذلك القَدْرُ اللازمُ فى الكفارة من الإطعام والكسوة والعتق ـ فاضلاً عن قُوتِهِ وقُوتِ عياله ، يومَه وليلتَهُ . وفاضلاً كذلك ، عن كسوته بِقَدْرِ مايطعم أو يكسو أو يعتق .

(ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ) :

بالله ـ أو باسم من أسمائه ـ وحنثتم .

(وَاحْفَظُوٓا أَيْمَانَكُمْ) :

أى قلّلوا منها ، فلا تحلفوا إلا لإحقاق حق أو دفع باطل ، قال تعالى : « وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا . . . »[2] الآية .

---

(١) البلد ، الآيات : ١١ ، ١٢ ، ١٣ . (٢) البقرة ، من الآية : ٢٢٤

(كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) :

أى مثل ذلك البيان الشافى ، يبين الله لكم أعلام شريعته وأحكام دينه ، لتقوموا بشكره على ما أرشدكم إليه ، من تشريعات نافعة .

وقد وضح بهذا ، أن ما يتداوله الجهلة من حَلِفٍ بغير الله تعالى ، أو بغير اسم من أسمائه ، أو مَنْ حَلِفٍ بغير صفة من صفاته [١] - حرام شرعًا ، وقد يَجرُّ إلى الكفر ، لإشراكه غير الله فى التعظيم والعياذ بالله ؛ « . . . فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » [٢] .

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾) .

المفردات :

(الْخَمْرُ) : هى كل ما خامر العقل وغيَّبه .

---

(١) كقدرة الله ، وعلم الله ، ووجود الله .

(٢) النور ، من الآية : ٦٣

(الْمَيْسِرُ) : القمار .

(الْأَنصَابُ) : هى حجارة كانوا يذبحون قرابينهم عندها . وقيل : إنهم كانوا يعبدونها ، ويتقرَّبون إليها .

(الْأَزْلَامُ) : هى قداح ، أى قطع رقيقة من الخشب على هيئة السِّهام كانوا يستقسمون بها فى الجاهلية ؛ لأجل التفاؤل أو التشاؤم .

(رِجْسٌ) : الرجس ؛ كل ما يستقذر ؛ حسا أو معنى .

(فِيمَا طَعِمُوا) : أى فيما تناولوا قبل التحريم .

التفسير

٩٠ـ (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ . . .) الآية .

لمّا سبق النهىُ عن تحريم الطيب الحلال ، والأمرُ بالأكل مما رزق الله من الحلال الطيب ـ وكانت الخمر والميسر من جملة الأمور المستطابة عندهم ، بحسب العرف والإلف .

عقب الله ذلك ببيان أنهما ليسا من الحلال الطيب . بل هما مما حرَّم الله تعالى .

سبب النزول :

أورد ابن جرير وابن مردويه ، فى سبب نزول هذه الآيات : أن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه ـ قال : « فِيَّ نَزَلَ تَحْرِيمُ الْخَمْرِ ... صَنَعَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ طَعَامًا ، فَدَعَانَا فَأَتَاهُ نَاسٌ . فَأَكَلُوا وَشَرِبُوا حَتَّى انْتَشَوْا مِنَ الْخَمْرِ . وَذَلِكَ قَبْلَ تَحْرِيمِهَا . فَفَاخَرُوا . فَقَالَتِ الْأَنْصَارُ : الْأَنْصَارُ خَيْرٌ . وَقَالَتْ قُرَيْشٌ: قُرَيْشٌ خَيْرٌ . فَأَهْوَى رَجُلٌ بِلَحْيِ جَزُورٍ[1] . فَضَرَبَ عَلَى أَنْفِي فَفَزَرَهُ[2] قَالَ : فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَذَكَرْتُ لَهُ ذَلِكَ فَنَزَلَتْ » :

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) :

---

(١) اللحى : هو الفك الذى ينبت عليه الأسنان السفلى . (٢) فزره : أى شقه .

خاطَب الله المسلمينَ – بوصف الإيمان – ليستجيبوا إلى ما يأْمرهم به ، ويقلعوا عما نهاهم عنه ، تحقيقا لإيمانهم .

وفى هذه الآية ، ينهاهم عن شرب الخمر نَهْيًا حاسما .

والخمر : هى كل ما خامر العقل ، فستره وحجبه عن التفكير . وهو يصدق على كل مُسْكر : مصنوع من عصير العنب أَو غيره ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : « كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ ، وَكُلُّ خَمْرٍ حَرَامٌ »[١] .

وفى رواية لمسلم ، والترمذى ، والنسائى ، وأَبى داود ، وابن ماجه ، وأَحمد ، عنه صلَّى الله عليه وسلم : « كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ وَكُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ » .

وخرّج أَبو داود : « نزل تحريم الخمر يوم نزل ، وهو من خمسة : من العنب ، والتمر ، والحنطة ، والشعير ، والذرة . والخمر : ما خامر العقل » .

والواقع : أَن أَى شراب – تغير طعمه وظهر فيه الغول (الكحول) وأَسكر – فهو خمر . وهو حرام . قَلَّ أَو كَثُرَ . لقوله صلى الله عليه وسلم : « مَا أَسْكَرَ كَثِيرُهُ فَقَلِيلُهُ حَرَامٌ »[٢] .

وهذا ينطبق على ما يسمونه الآن « البيرة » ، كما ينطبق على جميع المخدرات ، مثل : الأَفيون ، والحشيش ، والقات ، والكوكايين ، والهيروين . . .

فقد ورد : أَن النبى صلَّى الله عليه وسلم « نَهَى عَنْ كُلِّ مُسْكِرٍ ومُفَتِّرٍ »[٣] .

وقد الْتبس الأَمر على بعض الباحثين ، فظنوا النبيذَ – المعروف الآن – حلالا .

والواقع أَنه حرام بالإجماع ؛ لأَنه مُسْكر .[٤]

أَما النبيذ الوارد فى كتب الفقه فهو ما يسميه أَهل مصر – الآن – بالخشاف ، ويسميه أَهل سورية بالنقوع (النقيع) وهو شراب منقوع فيه التمر أَو الزبيب أَو المشمش وغيرها ويغلى حتى ينضج ويحلو ماؤُه فهذا لا حرج فيه إذا لم يتخمر . أَما إذا ترك فترة طويلة ، حتى

(١) رواه مسلم والدارقطنى .
(٢) رواه الترمذى ، والنسائى وأبو داود ، وابن ماجه ، وأحمد ، وابن حبان .
(٣) فتر الشراب الجسم : جعله خامدا خاملا .
(٤) رواه ، أحمد ، وأبو داود . عن أم سلمة ، رضى الله عنهم .

تغيَّر ، وقذف بالزبد ، وظهر فيه الغول (الكحول) فإنه - حينئذ - يصبح مُسْكِرا ، ويكون حراما : شأنه - فى هذا - شأن عصير العنب ، واللبن الحامض .

والدقيق الذائب فى الماء « البوظة » وأشباهها ، إذا تغيرت وأسكرت فهى حرام . وإذا لم تتغير ، فلا حُرْمة فيها .

وتحريم الخمر قائم على الصالح العام ، لأنها تتلف الأجسام ، وتنهك الأعصاب ، وتؤثر على العقول ، وتدفع إلى التصرفات السيئة كارتكاب الآثام ، وهَتْكِ الحُرُمات ، وتبديد الأموال . وضياع المروءات ، والتقصير فى أداء العبادات .

وكما حَرَّمت الآيةُ الكريمة الخمرَ ، حَرَّمَت الميسرَ ؛ لأنه يصرف صاحبه عن الأعمال المثمرة ويدفع إلى الخسائر المتوالية ويولد الأمراض العصبية والنفسية ، ويزعزع كيان الأسرة والمجتمع . بما قد يثير الضغائنَ والأحقاد ويمزق صلاتِ الأرحام . ويدعو إلى سيطرة التشاؤم على نفوس اللاعبين وعلى التعلق بالخيالات والأوهام .

ومن الميسر : ما يعرف الآن بأوراق اليانصيب .

أما الأنصاب ؛ فتقوم على تقديس الأحجار ، فإن كانت للذبح عليها ، وتقديم القرابين إلى الأوثان ، فهى لَوْن من الشرك بالله ، وإن كانت للعبادة فهى شِرْك صريح ؛ والله سبحانه « لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ . . . »[1] .

وأما القداح (وهى الأزلام) فقد سبق تفسيرها ، فى الآية الثالثة من هذه السورة .

وشبيه بهذه القداح مايزعمه الزاعمون الآن من : قراءةِ الكف ، والفنجانِ ، وأوراقِ اللعب ، أو تحضيرِ الأرواح ، واستشارةِ الكهنة والعرافين ، وراصدى النجوم وغيرهم من مدعى الغيوب .

وخير لمن الْتبس عليه الرأى وحار فى أمره أن يؤدىَ صلاة الاستخارة ويدعوَ دعاءها وقد بسطنا ذلك فى شرح الآية الثالثة من هذه السورة .

(١) النساء ، من الآية : ٤٨

وقال عليه الصلاة والسلام : « مَنْ أَتَى عَرَّافًا - أَوْ كَاهِنًا - فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّد »[1] .

هذه المنكرات كلها ، ينفر منها العقل ، وينكرها الشرع . وقد زينها الشيطان وخدع بها بعض المفتونين ، فصدهم عن السبيل ، حيث أوهمهم أن قليل الخمر مفيد للصحة ، وأن فى الميسر فائدةً للفقراءِ ، وأن الأنصابَ وسيلةٌ لذبح القرابين والانتفاع بلحومها ، وأن إجالَة القداح استخارةٌ ... وكل هذه مغالطات واهية : تنكرها العقول الرشيدة ، والطبائع السليمة .

(فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) :

فاتركوا هذا الرجس القبيح ، رجاءَ أن تكونوا فى عداد المفلحين الفائزين ، بتزكية أنفسكم ، وسلامة أبدانكم . والتوادّ فيما بينكم .

وقد جمع الله سبحانه الخمر والميسر مع الأنصاب والأزلام فى هذه الآية لتأْكيد تحريم الخمر والميسر . ثم أفرد الخمرَ والميسر فى الآية التى تليها لأن الخطاب فيها ، مع المؤمنين الذين هجروا الأنصاب والأزلام بدافع من إيمانهم ، أى من تلقاءِ أنفسهم ، ولم تكن الخمر قبل هذا محرمة . بدليل قوله تعالى : (يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ...) الآية .

والمقصودُ نَهْىُ المؤمنين - جميعا - عن شرب الخمر : وعن اللعب بالقمار . قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : « لَعَنَ اللهُ الْخَمْرَ ، وَشَارِبَهَا ، وَسَاقِيَهَا ، وَبَائِعَهَا ، وَمُبْتَاعَهَا . وَعَاصِرَهَا ، وَمُعْتَصِرَهَا ، وَحَامِلَهَا ، وَالْمَحْمُولَةَ إِلَيْهِ ، وَآكِلَ ثَمَنِهَا »[2] .

وقد أكَّد الله تحريم هذه الأُمور فى الآية الأُولى ، بقصرها على الرجس الذى هو من عمل الشيطان . وحيث كانت كذلك ، فلا يرجى منها خير . وجعل اجتنابها سببا يرجى منه الفلاح .

وحَدُّ من ثبت عليه شُرْبُ الخمر بإقرار أو شهود : أربعون جَلدة ، وقيل : ثمانون . وتفصيل ذلك فى كتب الفقه .

---

(١) رواه مسلم والحاكم . (٢) رواه أبو داود والحاكم فى المستدرك عن ابن عمر . الفتح الكبير : ٣ - ١٣

وبعد أن أمر الله باجتناب هذه الموبقات ، ذكر سبحانه وتعالى أن فى الخمر والميسر مَفْسَدَتَيْنِ كبيرتين : إحداهما دنيوية ، والأخرى دينية ، فقال تعالى :

٩١ـ (إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَآءَ فِى الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ...) الآية .

أى لا يريد الشيطان – بتزيينه الخمر والميسر – إلا أن يقطع ما بينكم من صلات المودة ، ويجعل مكانها العداوة والبغضاء ، بسبب ما تثيره الخمرُ والميسر من أسباب القطيعة ، ويصرفكم عن ذكر الله الذى به صلاح دنياكم وآخرتكم ، ويصرفكم عن الصلاة التى هى عماد الدين ، وفى أدائها تزكيةٌ لنفوسكم ، وتطهير لقلوبكم ؛ لأن السكران لا يذكر الله ، ولا يميز أوقات الصلاة ، ولا يقيم أركانها ، ولأن المقامر : يشغله اللعب والاستغراق فيه ، عن ذكر الله وعن الصلاة .

ولما بيّن – جَلَّ اسمه – حكمة تحريم الخمر والميسر ، أكد ذلك التحريم ، بما يفيد الوعيد على عدم الامتثال ، فقال :

(فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ) :

وهذا أمر بالانتهاء ، جاء بأسلوب الاستفهام . فكأنه قال : قد أوضحتُ لكم ما فى الخمر والميسر من أنواع المفاسد والمضار الدنيوية والدينية ، فانتهوا عن تلك المفاسد ، حتى لا يحل بكم عقابى .

وقد فهم هذا المعنى عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه .

قال الطبرى فى تفسيره : لمّا علم عمر رضى الله تعالى عنه : أن هذا وعيد شديد زائد على معنى : انتهوا .. قال : « انتهينا يارب » .

ثم أمر النبى صلى الله عليه وسلم ، مناديَهُ أن يُنَادِيَ فِى سِكَكِ المدينة : أَلَا إِنَّ الخمرَ قد حُرِّمت ... فكُسرت أوانيها ، بعد ما أُريقت حتى جرت فى سكك المدينة .

ثم زاد الله النهى عن تلك الموبقات تأكيدا ، فقال :

٩٢ـ (وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا . . .) الآية .

والمعنى : وأطيعوا الله فى كل ما أمركم به ونهاكم عنه ، وأطيعوا الرسول فيا بلغه عن ربه . واحذروا المخالفة والعصيان ، حتى لا تتعرضوا للعقاب .

وبدهى : أن يدخل فى طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم ، اجتنابُ ما تقدم من المنهيات فإن الإسلام أَمَرَ بالمعروف ، ونَهَى عن المنكر .

(فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوٓا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) :

فإن أعرضتم عن طاعة الله ورسوله ، فعليكم وِزر مخالفتكم .

أمَّا الرسول فقد بلَّغ الرسالة وأدَّى الأمانة . وليس مسئولا عن مخالفتكم . قال تعالى :

« . . . فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وعَلَيْنَا الْحِسَابُ »[١] .

٩٣ـ (لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَّآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَّآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَّأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) :

سبب النزول :

روى الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده : عن جابر بن عبد الله ، يقول :

اصطبح ناسٌ الخمرَ ، من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم [قبل تحريمها] ، ثم قُتِلوا شهداءَ يوم أُحد . فقالت اليهود . فقد مات بعض الذين قتلوا وهى فى بطونهم فأنزل الله تعالى : (لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا . . .) الآية[٢] .

أى ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات إثمٌ وعقوبة ، فيا تناولوه ـ من طعام أو شراب ـ قبل تحريمه . وذلك إذا اتقوا الله وخافوه وعملوا الأعمال الصالحة ، ثم خافوا الله وآمنوا بما نُزِّل إليهم ـ بعد ذلك ـ من الأحكام والتزموه ، ثم استمروا على تقوى الله والخوف منه ، وأحْسنوا الأعمال والطاعة ، وعبدوا الله بإخلاص فى السر والعلن .

(وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) :

أى يرضى عنهم ويشملهم برحمته .

---

(١) الرعد ، من الآية : ٤٠

(٢) ابن كثير : ٢/٩٥

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم - الإحسان فى جواب من سأله عنه بقوله : « الْإِحْسَانُ : أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَّمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ » كما جاء فى الصحيحين عن عمر.

ويستفاد من الآية الكريمة : أن من مات - قبل تحريم الخمر أو بعد تحريمها - وكان ملتزما بما جاء فيها - كان بمنجاةٍ من عذاب الله .

كما يستفاد منها : أنه ينبغى للمؤمن ، أن يترقَّى فى معارج التقوى ، حتى يصل إلى درجة الإحسان .

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾) .

المفردات :

(لَيَبْلُوَنَّكُمْ) : الابتلاءُ ؛ الاختبار .

(بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ) : الصيد : ما صِيدَ من حيوان البحر ، ومن حيوان البر الوحشية ، ومن الطيور .

(تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ) : يراد به كثرته وسهولة اصطياده .

روى عن ابن عباس : أنه ما تناله الأيدى : الصغار والفراخ من الصيد . وما يؤخذ وينال بالرماح الكبار .

(لِيَعْلَمَ اللهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ) : أى ليعاملكم معاملة المختبر ، الذى يريد أن يعلم الشيء علم وقوع – وإن كان سبحانه وتعالى يعلمه علم غيب – فهو علام الغيوب .

(وَأَنتُمْ حُرُمٌ) الحُرُم : جمع حرام . ويطلق على الذكر والأُنثى . يقال : رجل وامرأة حرام . أى رجل محرم وامرأة محرمة : بحج أو عمرة .

(مِنَ النَّعَمِ) النعم : الأَنعام من الإبل والبقر والغنم .

(أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ) العَدل (بفتح العين) : المعادل للشيء ، والمساوى له . مما يدرك بالعقل والعِدل (بكسر العين) : المساوى للشيء مما يدرك بالحس .

(لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ) الوبال : من الوبل والوابل . وهو : المطر الثقيل . وطعامٌ وبيلٌ أى ثقيل . ويقال للأَمر الذى يُخْشَى ضَرَرُهُ : هو وبال .

(أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ) البحر المراد به : الماء الكثير الذى يوجد فيه السَّمَك ، كالأَنهار . والبِرَك ونحوها ... وصيد البحر ما يصاد منه مما يعيش فيه عامة .

(وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ) وطعام البحر : ما قذف به إلى ساحله .

(وَلِلسَّيَّارَةِ) والسيارة : هم المسافرون ، يتزودون منه .

(الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ):أى تجمعون وتساقون إليه يوم القيامة .

التفسير

٩٤ - (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ . . .) الآية .

بعد أن سبق النهى عن تحريم ما أحل الله تعالى من الطيبات ، ثم استثنى الله الخمر والميسر . استثنى هنا مما يحل : الصيد فى حال الإحرام . وأوجب جزاءً على قتله . وأوضح أن صيد البحر وطعامه حلال .

سبب النزول :

نزلت هذه الآية عام الحديبية ، حين أحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه . وكانوا ألفا وأربعمائة : أحرموا بالعمرة من ذى الحليفة . وأرسل النبى عليه السلام ، عثمانَ لأهل مكة يخبرهم : أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، قاصدٌ زيارةَ بيتِ الله ، فجلسوا ينتظرون عثمان . فكانت وحوش البر والطيور تأتى إليهم من كل فج . فنزلت هذه الآية .

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ) :

والمعنى : يَـٰٓأَيُّها ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ليختبرَنكم الله - وأنتم محرمون - ببعضٍ من الصيد ، يسهل عليكم تناوله ، بحيث تناله أيديكم ورماحكم :

(لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِٱلْغَيْبِ) :

ليعلم الله - علما كاشفا - مَن يخافه ويخشاه فينفذ أوامره ويجتنب نواهيه وهو لا يرى الله سبحانه لقوة إيمانه . والمقصود بالعلم : العلم التنجيزى الواقعى - أى العلم الكاشف فإنه تعالى قد عَلِمَ أزلا ما سوف يكون عليه حال عباده فى سِرِّهِم وجهرهم .

(فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ) : فاصطاد .

(بَعْدَ ذَٰلِكَ) : أى بعد الابتلاء .

(فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ) : أى شديد الإيلام . لأن من لا يملك نفسه - فى هذا الموطن ولا يرعى جانب الله ولا يخشاه - كيف يكون حاله وشأنه فيما هو أشد من هذا الابتلاء ، مما تكون النفس إليه أميل . وعليه أحرص ؟ !

٩٥ - (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ...) الآية .

سبب النزول :

يروى المفسرون : أن أبا اليسر ، قتل حماراً وحشيًّا - عمدًا - وهو محرم ، فنزلت .

والمعنى : يأيها الذين آمنوا ، لا تقتلوا الصيد ، وأنتم محرمون بِحَج أو عُمْرَة .

والمراد بالقتل : ما يعم الذبح وغيره .

والمراد بالصيد : المصيد . وخصه بعض الفقهاء بما يؤكل لحمه ؛ لأنه الغالب فيه عرفا .

والجمهور ، على أن غير المأكول يحرم قتله أيضا . ولا يستثنى من ذلك ، إلا مانصَّ عليه فى قوله عليه الصلاة والسلام : «خَمْسٌ فواسقَ : يُقْتَلْنَ فى الْحِلِّ وَالحَرَم : الغرابُ ، والحدأَةُ ، والعقربُ ، والفـأْرةُ ، والكلبُ العقورُ »[1] .

وقد ألحق مالكٌ وأحمدُ بالكلب العقور : الذئبَ ، والسبعَ ، والنمرَ ، والفهد؛ لأنها أشد ضررا منها . وهكذا كل ما يكون خطرًا على حياة الإنسان .

ولما كان قتل الصيد - فى حال الإحرام - ذنبًا كبيرًا كرّر النهى عنه - فى هذه السورة - أربع مرات :

أولها : فى قوله تعالى فى أول السورة : (. . . غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ) .

وثانيها : فى قوله عز وجل : (. . . لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ ...) .

وثالثها : فى قوله تعالى : (. . . لَا تَقْتُلُوا ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ...) .

ورابعها : فى قوله تعالى : (. . . وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ...) .

(وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ) :

أى ومن تعمد منكم قتل الصيد ، أو كان له دخل فى قتله ، سواءٌ أقتله فى الحَرَم أم فى خارجه .

وكذلك من قتله فى الحرم - وهو غير محرم - فعليه فى كل حالة مما ذكر جزاءٌ من النعم مماثلٌ لِمَا قَتَلَهُ إن وجد .

---

(١) أخرجه الشيخان عن عائشة رضى الله عنها .

وقد اختلف فى المراد بالمثل :

فقيل : هو النظير أى الشبيه . فى الظبية : شاة . وفى النعامة : بعير .

روى الدارقطنى عن جابر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « فى الضَّبع إذَا أَصَابَهُ الْمُحْرِمُ : كَبْشٌ . وَفِى الظَّبى : شَاةٌ . وَفِى الأَرْنَبِ : عَنَاقٌ[١] . وَفِى الْيَرْبوع[٢] : جَفْرَةٌ[٣] » .

وقيل المراد بالمثل : قيمة الصيد المقتول - يُقَوَّمُ فى المكان الذى صِيدَ فيه ، أو فى أقرب الأماكن إليه ، ويراعى زمان القتل فى التقدير لأن القيمة تتفاوت باعتبار الزمان والمكان .

وقوله تعالى : (مُتَعَمِّدًا) ليس قيدًا لوجوب الجزاء والكفارة . فإن الخطأ مثل العمد فى الكفارة المذكورة . فالتعبير بقوله : (مُتَعَمِّداً) لبيان الواقع . لأن الآية - كما سبق - نزلت فى أبى اليسر لَمَّا قَتَلَ - عمدًا - حِمارًا وحشيًّا وهو محرم .

وإن لم يوجد هذا المماثل من النعم ، وجبت قيمة هذا المماثل - فى محل الصيد - أو فى أقرب الأماكن إليه .

ويرجع فى المزيد فى هذا ، إلى التفصيل فى كتب الفقه .

(يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ) :

أى يحكم ويقضى بالمماثل للمقتول من صيد الحَرَم : رجلان عدلان من المؤمنين ؛ لأن المماثلة بين النعم والصيد ، مما يخفى على أكثر الناس . وما لا مثل له من النَّعم ، يحكم العدلان فيه بالقيمة .

(هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ) :

هذه العبارة مرتبطة بقوله : (فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ ...) إلخ .

والمعنى : إن جزاء الصيد الذى يحكم به العدلان ، يكون هدية تبلغ الحرم المكى ، أى تساق إليه وتذبح فيه وتوزع على الفقراء .

---

(١) العناق : الأنثى من ولد الماعز قبل أن تبلغ سنة .

(٢) اليربوع : دابة صغيرة تشبه الفأر .

(٣) الجفرة : الأنثى من ولد الضأن التى بلغت أربعة أشهر .

(أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا) :

المعنى : أن من قتل الصيد وهو محرم ، أو قتله فى الحرم وهو غير محرم ؛ فهو مخير بين ثلاثة أُمور : الجزاءُ بالمثل – كما سبق بيانه – أو إطعام المساكين ، أو الصيام .

فأما الإطعام : فبقيمة ما قتِل من الصيد . . . وأما الصيام : فصيام أيام بعدد الأمداد – جمع مُدٍّ – التى يُقوَّمُ بها الصَّوْمُ . . . لكل مُدٍّ يوم . ويرجع فى تفصيل ذلك إلى المراجع الفقهية . فإنها أَوْفى . . .

وظاهر الآية : يفيد التخيير بين الكفارات الثلاث ، كما قلنا . وعليه المذاهب الأَربعة[1] .

وذهب ابن عباس ، إلى أنه لا يُنتقل من كفارةٍ إلى أُخرى ، إلا إذا عجز عن التى قبلها

(لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ) :

أى أوجب الله هذا الجزاءَ السابق ، على قاتل الصيد ، ليذوق عقاب جنايته ، لهتكه حرمة الإحرام أو الحرمِ .

(عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ) :

أى عفا الله عما تقدم من قتلكم الصيد – قبل نزول هذا الجزاء : فلا يكلفكم بالجزاء عنه ولا يعاقبكم عليه .

(وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللهُ مِنْهُ) :

أى ومن عاد إلى قتل الصيد – بعد نزول هذه الآية – فينتقم الله منه ، وعليه مع ذلك ، الكفارة .

قال ابن جريج : « قلت لعطاء : فهل فى العَوْدِ من حدٍّ تَعْلَمُه ؟ قال : لا . قال : قلت : فترى حقا على الإمام أن يعاقبه ؟ قال : لا ، هو ذنب أذنبه فيما بينه وبين الله عز وجل ولكن يفتدى »[2]

(١) كتاب الفقه على المذاهب الأربعة .

(٢) رواه ابن كثير فى تفسيره عن ابن جرير .

(وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ) :

أى والله منيع فى سلطانه ، لا يقهره قاهر ، ولا يمنعه من الانتقام ممن عصاه مانع .

٩٦ـ (أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ . . .) الآية .

المراد بالبحر : ما يعم المياه العذبة والملحة . والمراد بصيده : ما صيد منه . فهو حلال كله . سواء أكان صيده للطعام كالسمك ، أم لغيره من وجوه النفع الأُخرى ، كاللؤلؤ والمرْجان .

(وَطَعَامُهُ) :

أى وأكل ما يصلح للأكل منه ، سواء أُخذ من البحر حيًّا أم ميتًا ، لقوله عليه الصلاة والسلام فى البحر : « هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ ، الْحِلُّ مَيْتَتُهُ »[1] .

وإنما تحل ميتة البحر ، مالم يتسرب إليها الفساد .

(مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ) :

أى يتمتعُ بصيد البَرِّ وينتفع به المقيم والمسافر .

(وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَادُمْتُمْ حُرُمًا) :

أى وحرَّم اللهُ عليكم اصطياد حيوان البر ـ أو طيره ـ مادمتم محرمين . بخلاف ماصاده غير المحرمين ، أو ما صِدْتُموه قبل إحرامكم . فليس محرَّما عليكم أن تأْكلوه ولو فى حال إحرامكم .

(وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) :

أى وخافوا الله ، واحذروا مخالفته ، والتزموا طاعته ، فيما أمركم به من فرائضه ، وفيما حذَّركم ونهاكم عنه ، من جميع محارمه . فهو الذى إليه ـ وحده ـ مرجعكم ومآلكم ، فيجازيكم على طاعتكم أو معصيتكم .

---

(١) أخرجه مالك والنسائى .

(جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾) .

المفـردات :

(قِيَامًا لِّلنَّاسِ) : ما يَقوم به أمر الناس ، ويُصلح شأْنهم : فى دينهم ودنياهم .

(وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ) : الحرام؛ (أل) فى الشهر ، للجنس . فيعم الأَشهر الحرم الأَربعة . وهى : ذوالقعدة وذوالحجة والمحرم ورجب. وقيل : « الشهر » هو شهر ذىالحجة .

(وَالْهَدْىَ) : ما يهدى إلى الحرم من الأَنعام قربة إلى الله ، للتوسعة على فقراء الحرم .

(وَالْقَلَائِدَ) : جمع قلادة ، وهى كل ما علق على أَسنمة الأَنعام وأَعناقها ، علامة على أَنها لله . والمراد بالقلائد : ذوات القلائد إذا ساقوها هَدْيا .

التفسير

٩٧ـ (جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْىَ ...) الآية .

لما تقدم – فى الآية السابقة – النهىُ عن الاصطياد فى الحرم ، ذكر هنا : أَن البيت الحرام كما جعله الله تعالى سبباً لأَمن الطير والوحوش ، جعله كذلك ملاذًا للناس وأَمنًا من المخاوف وسببا لحصول الخيرات ، وتحصيل البركات فى الدنيا والآخرة .

(جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْىَ وَالْقَلَائِدَ) :

أَى صيَّر الله الكعبة – التى هى البيت الحرام – قياما للناس أَى سببا لقيام وصلاح أَمر دينهم ودنياهم .. فهى مركز الإِسلام الأَوّل .

فصلاح أَمر الدين : بالحج إليه وأَداء المناسك والعبادات . التى تُقَرِّبُهم إلى الله تعالى .

وصحة الصلاة باستقباله . وتقويم الشهور العربية ، عن أَهلته .

وصلاح أمر الدنيا وقيامها : بأمنٍ داخل الحرم بسبب حرمة التعرض له ، ويجبى إليه ثمرات كل شيء ، وذلك لأَن مكة بلد لا زرع فيه ولا ضرع .

فقد جعل الله الكعبة مُعَظَّمةً فى القلوب يَفِدُ إليها الناس من كل فج عميق ، لأداءِ المناسك ، وصار ذلك سببا فى إسباغ النعم على أهلها ، إجابة لدعوة سيدنا إبراهيم الخليل ، صلوات الله وسلامه عليه . كما حكاه الله تعالى عنه فى قوله سبحانه : « رَّبَّنَا إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ »[1]

ولقد حقق الله دعوة سيدنا إبراهيم عليه السلام ، فأَصبحت الكعبةُ مثابةً للناس وأَمْنًا لمن لاذ بها . كما صارت أمنا لأَهلها على أنفسهم وأَموالهم. فقد كان العرب يغير بعضهم على بعض إلا فى الحرم . فلو لَقِيَ الرجلُ قَاتِلَ أَبيه أَو ابنه ، لم يتعرض له بسوءٍ .

وقد أُثر عن سيدنا عمر رضى الله عنه أنه قال : « لو ظَفِرْتُ فيه بقاتِلِ الخطاب – أَبيه – ما مَسَسْتُه » .

وكذلك جعل اللهُ الشهر الحرامَ سببًا لقيام الناس لأَن العرب كانوا يتقاتلون فى سائر الأَشهر ، حتى إذا دخل الشهر الحرام ، كفُّوا عن القتال ، وزال الخوف والفزع ، وباشروا الأَسفار والتجارات . وهم آمنون على أنفسهم وأَموالهم . ولهذا كانوا يكتسبون – فى الشهر الحرام – أَقواتهم التى تغنيهم وتسد حاجتهم طول العام . وكذلك جعل الله تعالى الهَدْىَ قياما للدين وللدنيا لأَنه يُهْدَى إلى البيت الحرام ، ويُذبَح ويُفرَّق على فقراءِ الحرم ومساكينه . فيكون نسكا للمُهدِى : يُثَاب عليه ، وقياما لمعيشة الفقراءِ والمساكين .

وكذلك القلائد : أَى النعم المقلَّدة ؛ جعلَها الله سبحانه قياما للناس . فإن لحمها طعام لمساكين الحرم ؛ يقوم به أَمر دنياهم . وثوابها يرجع إلى من يقدمها . فيقوم بها أَمر أُخراه . وتخصيصها بالذكر – مع شمول الهدى إياها – لبيان أَن الشرع أَباح تقليد المهدى ، لما فيه من إظهار شعائر الله والمبالغة فى منع التعرض لها .

(١) إبراهيم ، الآية : ٣٧

(ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَأَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ) :

أى ذلك الذى شرعه الله – فى شأن الكعبة والشهر الحرام والهدى والقلائد – ليعلم الناس ويتدبروا عظيمَ لُطْفِ الله ؛ الذى يعلم شئون خلقه ، ويعلم ما يحتاج إليه أهل هذا الإقليم – الذى لازرع فيه – من أسباب الرزق ، وأن علمه محيط بكل شىءٍ . فلا تخفى عليه خافية .

وفى تكرار العلم فى (يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَأَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ) ؛ توكيد ؛ لإحاطته تعالى بما كان ، وبما هو كائن ، وبما سيكون .

(ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾) .

التفسير

٩٨ – (ٱعْلَمُوٓا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) :

بعد أن بيَّن الله – فى الآيات السابقة – بعض مناسك الحج ، عقب ذلك بالتحذير من عقابه لمن يخالف أمره ، والترغيب فى ثوابه ومغفرته لمن يتبع هداه . فقال :

(ٱعْلَمُوٓا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) :

أى اعلموا – أيها المكلَّفون – أن الله شديد العقاب ، لمن اجترأ منكم على حُرُماته ، ولم يبال بأوامره ونواهيه ، ولم يعقب سيئاته بالندم عليها والمتاب منها . واعلموا أن الله عظيم الغفران والرحمة ، لمن تاب من ذنبه وعاد إلى ربه ، وندم على ما فرط منه .

والآية قدمت الوعيد بالعقاب على الوعد بالغفران والرحمة ، ليدرك الناس مبلغ خطورة الذنب . كيلا يُقدِموا عليه . فإن أقدموا عليه – جَهْلا – سارعوا إلى المتاب منه ؛ ندما واستغفارا ، ليكونوا أهلا لمغفرة الله ورحمته .

٩٩ – (مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ) :

أى : ليس على الرسول إلا أن يبلغ ما أُنزِل إليه من ربه . وقد أدى عليه الصلاة والسلام رسالة ربه كاملةً . فبشر وأنذر ، وأعلن ذلك فى حجة الوداع . وقال : « أَلَا لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ ، فَلَعَلَّ بَعْضَ مَنْ يَبْلُغُهُ أَنْ يَكُونَ أَوعَى لَهُ مِنْ بَعْضِ مَن سَمِعَهُ . أَلَا هَلْ بَلَّغْت ؟ أَلَا هَلْ بَلَّغْت . . ؟ »[1] .

والله سبحانه وتعالى ، يعلم ما تُظْهِرون وما تُخفُون من طاعة ومعصية ، فَيُحَاسِبُكم عليه ، ويجازيكم به ، إن خيرًا فخير ، وإن شرًّا فشر .

١٠٠ – (قُل لَّا يَسْتَوِى الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ ...) الآية .

المراد من الخبيث : ما يَعُمُّ الردىءَ والحرامَ . والمراد مِن الطيب : ما يعم الجيدَ والحلال .

وقد أمر الله الرسول صلى الله عليه وسلم : أن يبلغ أُمَّتَه هذه القاعدة العامة ، التى لا يمارى فيها العقلاءُ . وهى أنه : لا يستوى الخبيث والطيب ، ولو كان الخبيث كثيرا والطيب قليلا .

فالطيب : – من كل شىءٍ – راجح محمود وإن قل . والخبيث : مرجوح مرذول ، وإن كثر !!

وإذا كان الأمر كذلك ، فلا يعقل أن يتقبل الله الخبيث – مهما كثر – ويدع الطيب وإن كان قليلا . فإن اللهَ طَيِّبٌ ، لا يقبل إلا طيِّبًا . ولذا ، عقبه بقوله :

(فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) :

أى : اجعلوا لأنفسكم وقاية من عقاب الله ، يا أصحاب العقول السليمة ، بفعل الطيب من الأعمال وترك خبيثها ؛ لكى تفوزوا برضوان الله ، وتنجوا من غضبه وعقابه . .

---

(١) صحيح البخارى فى حجة الوداع .

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾) .

التفسير

١٠١ ـ (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ...) الآية .

بين الله تعالى ـ فيما سبق ـ أن وظيفة الرسول هي : التبليغ وبيانُ شرع الله . وقد أدَّى الرسول ما أُوحِيَ إليه من ربه ، وبرئت ذمته .

واستطرد الحديث ، إلى الكلام على حال العباد ، وأعمالهم ، ومكاسبهم ، ومبلغ تأثرهم بالرسالة . فناسَبَ ـ بعد ذلك ـ أن يُنبِّه المؤمنين : إلى أنه لا ينبغى لهم أن يكثروا على الرسول من السؤال ، حتى لا يؤدى ذلك إلى كثرة التكاليف ، فيشقَّ عليهم ذلك فيقعوا فى الحرج ، ويعجزوا عن القيام بما يُكلَّفون به ، ويخالفوا أوامر الله ، ويكونوا من صنف الخبيث من الناس . فيبوءوا بغضب الله وسخطه .

سبب النزول :

روى الإمام أحمد ـ بسنده ـ عن عليّ قال : « لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَة ، (وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا) . قَالُوا : يَارَسُولَ اللهِ ، أَفِى كُلِّ عَامٍ ؟ فَسَكَتَ ، فَقَالُوا : أَفِى كُلِّ عَامٍ ؟ فَسَكَتَ . ثُمَّ قَالُوا : أَفِى كُلِّ عَامٍ ؟ فَقَالَ : لَا .. وَلَوْ قُلْتُ : نَعَمْ ، لَوَجَبَتْ ... وَلَوْ وَجَبَتْ ، لَمَا اسْتَطَعْتم » ؛ فأنزل الله تعالى :

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ...) الآية .

وروى البخارى - بسنده - عن أنس بن مالك قال : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة ما سمعت مثلها قط . وقال فيها : «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ ، لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا» قال : فغطَّى أصحابُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وُجُوهَهم - لهم حنينٌ - فقال رجل : مَنْ أَبِي ؟ فقال : فلان ... فنزلت هذه الآية :

(يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ) :

أى : يَٰأيها الذين آمنوا ، لا تسألوا رسولَ الله عن أشياءَ من أُمور الدين ودقائق التكاليف . أو من أُمور الغيب ، أو الأَسرار الخفية . أو غير ذلك - حتى لا يحرجكم ببيانه أَو يحزنكم ويسوءكم سماعه : إما بتشريعِ ما يشق عليكم ، أَو بذكرِ أَسرار تفضح أَهلها .

(وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ) :

أَى : وإِن تسأَلوا رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم . عن تلك الأَشياء - فى زمان نزول الوحى ووجود الرسول بينكم - فإِن الله تعالى يُظْهِرها ويُبْدِيها لكم على لسان رسوله .

وفى هذا تحذير من السؤال عن أَشياء : يكون من شأْن إبدائها ، حرج للسائلين .

أَما السؤال لغرض التَّفَقُّهِ أَو الحكم فى أَمر دينى ، فلا مانع منه . كما وقع فى شأْن تحريم الخمر ، بعد نزول آية البقرة : «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ...»[1] الآية .

فقد سأَل عمرُ بن الخطاب ، رضى الله عنه ، وكرَّر المسأَلة : «اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِى الْخَمْرِ بَيَانًا شَافِيًا» . حتى انتهى التشريع إِلى تحريم الخمر تحريما قاطعا .

(عَفَا اللهُ عَنْهَا وَاللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ) :

أَى : عفا الله عما سلف من مساءلتكم عنها قبل التحريم . فلا تعودوا إِلى مثل ذلك فيما بعد .

ومعنى قوله تعالى :

(وَاللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ) :

أَى : عظيم الغفران والحلم ، فلا يعاجلكم بعقوبة ما يفرط منكم من الذنوب فهو تعالى يعفو عن كثير .

---

(١) البقرة ، من الآية : ٢١٩

ثم بَيَّن لهم الآثارَ المترتبةَ على إلحافهم فى السؤال فقال :

١٠٢ ـ (قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ) :

أى : قد سأل مثل هذه المسائل المنْهِىّ عنها ، قوم من قبلكم فأُجيبوا ، ثم لم يعملوا ، فأصبحوا بها كافرين .

(مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَـٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾) .

المفـردات :

(بَحِيرَةٍ) : البحيرة ؛ هى الناقة التى يبحرون أُذنها . أى يشقونها إذا أنتجت خمسة أبطن ، خامسها أُنثى .

(سَآئِبَةٍ) : السائبة ؛ هى الناقة التى تُسَيَّبُ بنذرها لآلهتهم فترعى حيث شاءت ولا يحمل عليها شىء ، ولا يُجزُّ وبَرُها ، ولا يُحْلَبُ لَبَنُها إلا لضيف .

(وَصِيلَةٍ) : الوصيلة ؛ هى الشاة التى تصل أخاها . فقد كانوا إذا ولدت الشاة ذكرا : كان لآلهتهم ، وإذا ولدت أُنثى : كانت لهم ، وإن ولدت ذكرا وأُنثى قالوا : وصلت أَخاها ، فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم .

(حَامٍ) : الحامى ؛ هو الفحل يولد من ظهره عشرة أبطن ، فيقولون : حَمَى ظهره فلا يحمل عليه ، ولا يمنع من ماءٍ ولا مرعى .

التفسير

١٠٣ - ﴿ مَاجَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ... ﴾ الآية .

بعد أن نهى الله عن تحريم ما أحلَّ من الطيبات ، وعن الاعتداء ومجاوزة الحد فيما أحل أو حرّم .

وبعد أن نهى عن كثرة السؤال مما قد يؤدى إلى مساءلتهم وتكليفهم - بعد كل هذا - ناسب أن يُبيِّنَ ضلال أهل الجاهلية ، فيما حَرَّمُوه على أنفسهم وما شرعوه ، مما لم يأذن به الله تعالى ، وفيما قلَّد فيه بعضهم بعضا ، مبينا بطلان التقليد ، وأنه يتنافى مع العقل ، والعلم ، والدين الصحيح . فقال تعالى :

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ﴾ :

هذا رَدٌّ وإنكار لما ابتدعه أهل الجاهلية . وهو أنهم كانوا إذا نُتِجت الناقةُ خمسة أبطن - آخرها ذكر - بحروا أذنها . أى شقوها . وخلَّوْا سبيلها . فلا تُركب ولا تُحلب . وكان الرجل منهم يقول : إن شُفِيتُ ، فناقتى سائبة . ويجعلها كالبَحِيرة : فى تخلية سبيلها ، وتحريم الانتفاع بها . وإذا ولدت الشاةُ أنثى فهى لهم ، وإن ولدت ذكرا فهو لآلهتهم . وإن ولَدتْ ذكرا وأنثى معا . قالوا : وصلت الأنثى أخاها فلا يُذْبَحُ الذكر . وإذا نُتِجَت من صلب الفحل عشرة أبطن . حرموا ظهره ، ولم يمنعوه من ماءٍ ولا مرعى . وقالوا : قد حَمَى ظهره .

فمعنى قوله : ﴿ مَاجَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ﴾ :

أى : ماشرع الله ذلك ولا أَذِنَ به . وإنما هو مبتدع مختلق من عندهم .

﴿ وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾ :

إذ يفعلون ما يفعلون ، ويزعمون - زُورًا - أن الله تعالى يأمرهم به .

وأول من سَنَّ لأهل الشرك تلك السُّنن الباطلة المنكرة ، ونسبها إلى الله ، هو عمرو بن لُحَىٍّ الخزاعى ، فهو الذى غَيَّر دِينَ إبراهيم وإسماعيل ، وبَحَر البحيرةَ وسَيَّبَ السائبة ، وحمى الحامى . وزعم أن ذلك شَرْعُ إبراهيم عليه السلام .

أخرج ابن جرير ، عن أبي هريرة ، قال : سمعت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول لأكثم بن الجون : « يا أكثمُ ، عُرِضتْ عَلَيَّ النارُ . فَرَأَيْتُ فِيهَا عَمْرَو بنَ لُحَيٍّ بن قَمَعَة ابن خِندِف يَجُرُّ قُصْبَهُ[1] فِى النارِ فَمَا رَأَيْتُ رَجُلاً أَشْبَهَ بِرَجُلٍ ، مِنْكَ بِهِ وَلَا بِهِ مِنْكَ . فقال أكثمُ : أخشى أن يضرنى شبهه يارسول الله . فقال رسُولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلم : لَا . . إنَّكَ مُؤْمِنٌ - وَهُوَ كَافِرٌ . إنه أول من غيَّرَ دينَ إسماعيل ، وبحَر البحيرةَ ، وسيَّبَ السائبةَ ، وحمى الحامىَ » .

(وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) : أن ذلك افتراءٌ ؛ لأنهم قلدوا فيه آباءهم .

والمعنى : ولكن الكافرين – من الرؤساء والكهان[2] – افترَوُا الباطل ، وأضافوه – زورا – إلى الله . أمَّا أكثرهم – وهم عوامهم الذين يَتَّبعونهم – فهم قوم لا يعقلون أنه افتراءٌ باطل حتى يخالفوهم ويهتدوا إلى الحق بأنفسهم . لذلك قلدوهم واستمروا على تقليدهم .

وفى هذه الجملة تنديد بقصور عقلهم ، وسوءِ تقليدهم ، لمن أضلوهم من الكهان .

١٠٤ – (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَآءَنَا ...) الآية .

هذا بيان لقصورهم ، وانهماكهم فى التقليد ، دون أن يُحَكِّموا عقولَهم .

والمعنى : وإذا قال لهم الرسول : تعالَوْا إلى ما أنزل الله من تشريع ، وإلى الرسول ليبينه لكم ، أعرضوا ولم يستجيبوا لداعى الهُدَى والحق قائلين : كافينا ما وجدنا عليه آباءنا من الدين والتشريع . فَردَّ الله تعالى عليهم بقوله :

(أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ) :

أى : أيكفيهم ماوجدوا عليه الآباءَ ، ولو كان أُولئك الآباء جاهلين : لايعلمون شيئا من شرع الله ، ولايهتدون إلى سبيل الحق والرشاد ؟

والاستفهام فى قوله : (أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ) للإنكار والتوبيخ ، والتعجيب من فرط جهالتهم ، وتقليدهم الأعمى .

---

(١) القصب – بضم فسكون – المعى . وجمعه قصبان .

(٢) رجال الدين من المشركين .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥ ﴾ .

التفسير

١٠٥ - (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَايَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ...) الآية.

بعد أن نعى الله تعالى ، على المشركين تقليدهم لآبائهم بغير علم ، واتباعهم إياهم في ضلالهم ، وأبان : أنهم لم تنفعهم المواعظ ولم يُجْدِهِم التذكير بتجهيل الآباءِ ، بل استمرُّوا على تقليدهم وجهلهم - بعد كل هذا - أمر الله المؤمنين أن يقوِّموا أنفسهم بالإصلاح ، والعلم النافع ، والعمل الصالح . وأوضح لهم : أنهم إذا التزموا الطريق المستقيم ، لايضيرهم - بعد ذلك - ضلال الضالين ، وغواية الغاوين ... ومعنى قوله تعالى :

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ) : أي : التزموا إصلاح أنفسكم ، واحفظوها من المعاصي ، واعملوا خيرا يقربكم من الله تعالى ، ويحفظكم من سخطه وعقابه . فإنه لايضركم ضلال الضالين إذا كنتم على هدى .

روى الترمذي ، عن أبي أُمية الشيباني . قال : « أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلت له : ما تصنع في هذه الآية ؟ فقال : أَيَّةُ آية ؟ قلت : قول الله تعالى : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَايَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ) : قال : أَمَا والله ، لقد سألت عنها خبيرا . . سألتُ عنها رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « بَلِ ائْتَمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ ، وَتَنَاهَوْا عَنِ المنكرِ ، حتَّى إذا رأَيتَ شُحًّا مُطاعا ، وَهَوًى متَّبَعًا ، ودُنْيا مُؤْثَرَةً وإعجابَ كُلِّ ذِى رَأْيٍ برأْيه ، فَعليْكَ بِخاصَّةِ نفْسِكَ . . ودَعْ عَنْكَ العَوَامَّ ، فإِنَّ مِنْ وَرَائِكُم أَيَّامًا : الصَّابِرُ فِيهنَّ ، مِثْل القابِضِ على الجَمْرِ . للعامل فِيهنَّ أَجْرُ خَمْسِين رَجُلا يَعْمَلُونَ كَعَمَلِكُم » .

وزاد فى رواية أُخرى « قيل : يارسولَ اللهِ ، أَجْرُ خَمْسِينَ مِنَّا أَو منْهُم ؟ » قال : « بَلْ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُم » .

وروى ابن كثير ، عن الإمام أَحمد : أَن أَبابكر رضى الله عنه قام فحمد الله ، وأَثنى عليه . ثم قال : « أَيها النَّاسُ ، إِنكم تَقْرَءُون هذه الآية : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ) وإِنكم تضعونها على غير موضعها . وإِنى سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : إِنَّ النَّاسَ إِذَا رأَوُا المنكرَ ولَم يُغَيِّرُوهُ ، يُوشِكُ اللهُ – عزَّ وجل – أَن يَعُمَّهُم بِعقابِه » .

وظاهر هذه الآية ، يوهم أَن الأَمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، قد يسقطان عن المستقيم الصالح ، إِذا رأَى الضال مصرًّا على ضلاله .

ولكنَّ فَهْمَ الآية على هذا الوجه خطأٌ . فإِن الأَمر بالمعروف والنهى عن المنكر – لايسقط وجوبهما عن القادر عليهما بحال من الأَحوال . قال تعالى : « وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ... »[1] وقال تعالى : « كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ . . . »[2] وقال صلى الله عليه وسلم : « وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ ، لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عن المنكَر ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِّن عِنْدِهِ ، ثُم لَتَدْعُنَّه فَلَا يَسْتَجِيبُ لَكُمْ » .

وقد لعن الله اليهود ؛ لأَنهم : « كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ . . . »[3] .

وقد سبق شرح هذه الآية .

(إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) :

أَى : إِليه وحده ، رجوعكم جميعا : من ضل ومن اهتدى . فيخبركم – عند الحساب – بما قدمتم من أَعمال ، ويجزيكم على حسب ماعلمه من هدايتكم أَو ضلالكم .

وفى هذا وعد للمهتدين ، ووعيد للضالين ، وأَنه لايُؤَاخِذُ أَحدا بذنب غيره . لهذا كله ، يجب تأْويل الآية كما يلى :

---

(١) آل عمران ، من الآية : ١٠٤ (٢) آل عمران ، من الآية : ١١٠

(٣) المائدة ، من الآية : ٧٩

يَـأَيها الذين آمنوا ، عليكم إصلاح أَنفسكم ، بفعل ما أُمِرتُم به من التزامِ الحق والدعوة إليه ، وتَرْكِ الباطل والنَّهْىِ عنه . لا يضركم – بعد هذا – ضلالُ من ضل ، إذا اهتديتم. وفى هذا المعنى يقول الله تعالى : « وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ... »[١] .

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾) .

المفـردات :

(شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ) : الشهادة ؛ قول صادر عن علم حصل ، بطريق البصر أو السمع ، أو بهما جميعا .

(١) فاطر ، من الآية : ١٨

(إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ) : أى سافرتم فيها .

(تَحْبِسُونَهُمَا) : أى تمسكونهما ، وتمنعونهما من الانطلاق والهرب .

(إِنِ ارْتَبْتُمْ) : أى شككتم فى صدقهما فيما يُقرّان به .

(لَمِنَ الْآثِمِينَ) : أى العاصين .

(فَإِنْ عُثِرَ) : عثر من العثور على الشيء ، وهو : الاطلاع عليه من غير سبق طلب له . وأعثره عليه : وقفه عليه ، فأعلمه به ، من حيث لم يكن يتوقع ذلك .

التفسير

١٠٦ - (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ . . .) الآية .

لمّا بين الله تعالى - فى الآية السابقة - أن المرجع إليه وحده بعد الموت ، وأنه هو الذى يتولى الحساب ، وجزاء المحسن والمسيء ، أرشدنا سبحانه - فى هذه الآية - إلى أنه يلزم - فى الوصية قبل الموت - الإشهاد عليها ، حفاظا على أداء الحقوق الموصّى بها لمستحقيها .

سبب النزول :

عن ابن عباس رضى الله عنه قال : « خرج رجل من بنى سهم مع تميم الدارى وعدى ابن بداء ، فمات السهمى بأرض ليس بها مسلم . فلما قدما بتركته ، فقدوا جامًا من فضة مخوصا بالذهب فأحلفهما رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، بالله تعالى : ماكتمتما ولا اطلعتما . ثم وُجِد الجامُ بمكة . فقيل اشتريناه من تميم وعدى . فقام رجلان من أولياء السهمى ، فحلفا بالله : لشهادتنا أحق من شهادتهما . وإن الجامَ لصاحبهم . .

وفيهم نزلت : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ . . .) الآية »[1] .

---

(١) البخارى فى التاريخ والترمذى ، وحسنه ابن جرير وابن المنذر .

(يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ) :

أَعْلَمَ اللهُ سبحانه المؤمنين : أن الشهادة المشروعة بينهم – حين الوصية – هى شهادة اثنين من أصحاب العدالة والتقوى : يُشْهِدهما الموصِى على وصيته ، فيتحملان هذه الشهادة ، لأدائها عند الحاجة .

(مِنكُمْ) : أى من المؤمنين ، وقيل : من أقارب الموصِى .

(أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ) :

أى من غير المسلمين . فكأنه قال : أو شهادة اثنين آخرين من غير المسلمين .

(إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ) :

أى : إن أنتم سافرتم فى الأرض ، ونزلت بكم مصيبة الموت ، وأردتم الإيصاء . فأشهِدوا عَدْلَيْن من أقارب الموصى أو من المؤمنين أو آخرَين من أهل الذمة . أى فأشهدوا عدلَين منكم معشر المؤمنين . وقيل عَدْلَيْن من أقارب الموصى . وذلك إذا تَيسَّرَ وجودهما . فإن لم يتيسر وجودهما – بسبب السفر مثلا – فيجوز اختيارُ اثنين من أهل الذمة . وقيل من غير أقارب الموصى له .

(تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلَاةِ) :

تمنعونهما من الانصراف للتحليف بعد الصلاة . والمراد بالصلاة التى يُحْبَسان بعدها ، صلاة العصر ؛ لأنه وقت اجتماع الناس ؛ ولأنَّ الحُكَّام كانوا يجلسون للقضاء فى هذا الوقت بين الخصوم .

وقيل : بعد أى صلاة كانت ؛ لأن الصلاة داعية إلى النطق بالصدق ، وناهية عن الكذب لقوله تعالى : « . . . إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَآءِ وَالْمُنكَرِ . . . »[1] .

والمأثور عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أنه حلَّف عديا وتميما الدارىَّ بعد العصر .

وقد جرى العمل على هذا بين المسلمين .

(١) العنكبوت ، من الآية : ٤٥

(فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ) :

فيقسمان عند ارتياب الورثة وشكِّهم ، فإذا لم تكن ريبة ، فَيُصَدَّق الشاهدان ، لأمانتهما وعدم الارتياب فيهما .

(لَا نَشْتَرِى بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى) :

أى : لا نستبدل بالقَسَمِ بالله عَرَضا زائلا من الدنيا . فلا نحلف بالله كاذبين ، ولو كان القَسَمُ يحقق مصلحة لبعض الأقارب ، طمعا فى عَرَض الدنيا .

(ولَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللهِ) : أى ويقول الحالفان - فى يمينهما - ولانكتم الشهادة التى أمر الله تعالى بإقامتها . كما قال تعالى : « ...وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلهِ ... »[1] . وكقوله سبحانه : « ... وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ... »[2] .

(إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الْآثِمِينَ) :

أى : أننا إذا اشترينا بالقسَمِ ثمنا ، أو راعينا فيه قرابة . بأن كذبنا فى الشهادة - ابتغاء المنفعة لأنفسنا أو لقرابتنا ، أو كتمنا الشهادة كلها أو بعضها - كنا من الواقعين فى الإثم ، المستحقين للعقوبة من الله عليه .

١٠٧ - (فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْماً فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ . . .) الآية .

فإن اطُّلِعَ - بعد القسم - على أن الشاهِدَيْنِ الحالِفَيْنِ استحقَّا إثما ، بسبب الكذب أو الكتمان فى الشهادة ، أو الخيانة فى شيء من التركة : التى تحت أيديهما - فَعَدْلان آخران من أقرباء الميت : الذين وجب عليهم أداء الشهادة والقسم - وهذان الشاهدان هما : الأَوْلَيان بالشهادة والقسم . من سائر أقرباء الميت ، لقوة قرابتهما من الميت واستحقاقهما فى وصيته . فيحلفان بالله قائلَيْن : لَشَهادَتُنا أَحَقُّ وأولى بالقبول من شهادة الشاهدين الآثمين السابقين . وما تجاوزنا الحق فيما شهدنا به ، وأقسمنا عليه .

---

(١) الطلاق ، من الآية : ٢

(٢) البقرة ، من الآية : ٢٨٣

(إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ) :

أى : إنا – إذا اعتدينا عليهما ، ونسبنا إليهما الباطل ، وأقسمنا زورا وبهتانا – لنكونن حينئذ ، من الظالمين : لهما بالكذب عليهما ، ولأنفسنا بتعريضها لسخط الله وعقابه .

١٠٨ – (ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ . . .) الآية .

بيان للحكمة فى مشروعية الشهادة ، وهذه الأَيْمَان .

والمعنى : أن ذلك التشريع الحكيم ، الذى شرعناه ، أقرب إلى أن يؤدىَ المؤتمن على الوصية . الشهادة على وجه الحق والعدل ، بلا تغيير ولا تبديل ، مراقبةً لجانب الله ، وخوفًا من عقابه .

فإن فى أداءِ الشاهدين للقَسَم – على مَلَإٍ من الناس بعد الصلاة – ما يبعث الرهبة من الله والخوف من عذابه ، والرغبة فى مثوبته وعظيم أجره .

والذى لا يرتقى إلى هذه المرتبة – من مخافة الله ومراقبته – فإنه – قطعا – يخاف الافتضاح والتشهير به ، بردّ اليمين على الورثة الأقربين ، حيث يقوم بالشهادة والحلف الأوليان ، والأحقَّان بوصية الموصى .

وفى ذلك من الخزى والفضيحة ، ما فيه .

(وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا) :

أى : واتقوا الله تعالى – وراقبوه واسمعوا ، وأطيعوا ، واحذروا أن تحلفوا كاذبين فى أيمانكم ، أو أن تخونوا فى الأمانات التى تحت أيديكم . فإن لم تتقوا – ولم تسمعوا ما أُمرتم به ، وما نهيتم عنه – كنتم الفاسقين الخارجين عن طاعة الله .

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) : إلى سبيل الرشاد .

(يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾).

المفـردات :

(بِرُوحِ الْقُدُسِ) : هو مَلَكُ الوَحْيِ ؛ جبريل عليه السلام .

(الْكِتَابَ) : الكتب السماوية ، أو الكتابة .

(وَالْحِكْمَةَ) : العلم الصحيح الذى يبعث الإنسان على إصابة الحق ؛ فى الرأى والقول والعمل

(وَالتَّوْرَاةَ) : الكتاب الذى أنزله الله على موسى ، أساسا لشريعته . ولا يسمى به إلا الذى كان قبل التحريف . فما يتداوله اليهود الآن ، يحرم تسميته التوراة .

(وَالْإِنجِيلَ) : الكتاب الذى أنزله الله على عيسى : أساسا لشريعته . وينطبق عليه ما انطبق على التوراة فى التسمية .

(تَخْلُقُ) : تُصوِّر .

(الْأَكْمَهَ) : مَن وُلِد أعمى .

(وَالْأَبْرَصَ) : المريض ببياض الجلد . والبرص : مرض جلدى يُغَيِّرُ لون البشرة إلى البياض .

(سِحْرٌ مُّبِينٌ) : السحر ؛ تمويه وتخييل . به يرى الإنسان الشيء على غير حقيقته .

التفسير

١٠٩ – (يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ...) الآية .

لمَّا أَوجب الله على عباده – فى الآيات السابقة . إقامة الشهادة على وجهها ؛ وحذَّرهم من شهادة الزور ؛ وأَمرهم بتقوى الله تعالى ، عقب ذلك ببيان أَهوال يوم القيامة ، حتى تتمكن خشية الله وتقواه من نفوسهم ، ويعملوا بما كلفهم به .

والمعنى : واذكر – أَيها المكلف – حين يجمع الله الرسل يوم القيامة . فيقول لهم : ماذا أُجبتم من أَقوامكم حين دعوتموهم إلى توحيدى وطاعتى ؟ أَهى إجابة قبول ؟ أَم إجابة رَدّ وإباء ؟

وبما أَن الله تعالى – يعلم جواب الأُمم لرسلهم.فالمقصود بسؤال الله إياهم ، وهو إظهارُ أمانة الرسل وحرصِهم على تحرِّى الصدق فيما يقولون . ليكون ذلك تنبيها على وجوب تحرى الصدق فى الشهادة ؛ والبعد عن قول الزور ؛ ولذا قال سبحانه حكاية عنهم :

(قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ) :

أَى : يقولون للمولى –عَزَّ وجل– لا علم لنا بما أَجابونا به ، أَهو موافق لقلوبهم ؟ أَم مخالف لها ؟ وكل ما عرفناه ، ظاهر أَحوالهم . فمنهم من أَظهر الإيمان فعاملناه معاملة المؤمنين ، ومنهم من أَظهر الكفر فعاملناه معاملة الكافرين .

أَمَّا أَمْرُ القلوب ، فهو إليك . إنك أَنت علام الغيوب . وصدق الله إذ يقول :

« يَعْلَمُ خَآئِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى الصُّدُورُ »[1] .

---

(١) غافر ، الآية : ١٩

ثم شرع الله فى حكاية ما أجاب به بنو إسرائيل نبيَّهم عيسى عليه السلام ، بعد أن أَيَّدَه الله بالمعجزات الباهرات ، فقال :

١١٠ – (إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ ...) الآية .

فى هذه الآية الكريمة ، يذكِّر اللهُ تعالى نبيَّه عيسى عليه السلام ، بِنِعَمِه عليه وعلى والدته مريم عليهما السلام . حين أيده بروح القدس ؛ وهو جبريل عليه السلام .

ومعنى روح القدس : الروح المطهر من شوائب النقص .

وتأْييده لعيسى عليه السلام ؛ أنه صاحَبَهُ – من حين ولادته إلى أن رفعه الله إليه .

فأَما تأْييده له – من حين ولادته – فذلك أنه أقدره على أن يكلم الناس – بحكمة وعلم – وهو فى المهد . قبل أوان الكلام . ومن ذلك قوله لقومه : «... إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا . وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنتُ ... »[1] ؛ وذلك ردًّا على اتهامهم أُمَّهُ بسوءِ السلوك ، حين ولدته دون زوج .

وأما تأْييده له فى الكهولة : فهو إعانته على تبليغه رسالة ربه ، بنزوله بالوحى عليه ، وإظهار المعجزات على يديه .

وقد جعل الله تأْييده عيسى بروح القدس نعمة عليه ، وعلى والدته مريم – عليهما السلام – لما ترتب عليه من إثبات كرامتهما على الله وطُهْر مَنْشَئِه ، ونظافة عِرْض أُمِّه .

وكذلك سائر النعم التى أنعم الله بها على عيسى هى – فى الوقت نفسه – نِعَمٌ على أُمه مريم عليهما السلام .

والمعنى الإجمالى للآية الكريمة :

واذكر – أَيها المتأَمل المُنصِف – وقت أن قال الله لعيسى بن مريم ؛ تذَكَّرْ نعمتى عليك ياعيسى وعلى والدتك : حين قَوَّيْتُكَ وأَعَنْتُكَ بجبريل الروح المطهر . وكان تأْييدنا لك به : أنك تكلم الناس – فى مهد الطفولة ، وفى زمان الكهولة – كلام الحكماءِ الراسخين فى العلم ، الملهمين من العليم الحكيم .

(١) مريم ، من الآيتين : ٣٠ ، ٣١

(وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ) :

وتذكَّر ياعيسى . نعمتى عليك ، إذ علمتك (الْكِتَابَ) : أى جنس الكتاب . فيشمل الكتب السابقة ؛ لأنها – جميعا – متفقة فى أُصول العقيدة ، وأُصول الشريعة .

وعلمتك (الْحِكْمَةَ) : أى سداد الرأى ، وإصابة الحق ، وفَهْمَ أسرار العلوم .

(وَالتَّوْرَاةَ) : التى أنزلتها على موسى .

(وَالْإِنجِيلَ) : الذى أنزلته عليك لتكتمل بهما رسالتك ..

وخصهما بالذكر – مع شمول الكتاب لهما – لأَنهما أَهم الكتب التى أنزلها الله على أنبياء بنى إسرائيل : ومنهما تؤخذ شريعتك .

(وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِى) :

وتذكَّرْ نعمتى عليك : إذ تُصَوِّر من الطين مثل صورة الطير – بأَمرى وتَيْسِيرِى – فتنفخ فى هذه الصورة فتكون طيرا حقيقيا بتيسيرى ، ليكون ذلك آية لك . ولولا معونتى لما قدرت على تحقيق هذه المعجزة الباهرة . التى أيدنا بها رسالتك ، وحققنا بها نبوتك .

وقد أفادت هذه الآية : أن عيسى – عليه السلام – لم يكن له عمل فى شأْن تكوين الطير ، سوى صنع صورته من الطين بتيسير الله ، ونفخه فى هذه الصورة بإِذن الله .

أما تحقيق الحياة للطير ، فكان بإِذن الله وأمره التكوينى ، بعد اتخاذ عيسى – عليه السلام ، تلك الأَسباب اليسيرة ؛ التى لا علاقة لها بالتكوين أصلا .

(وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِى وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِى) :

وتذكَّرْ يا عيسى ، نعمتى عليك ، حين تُبْرِئُ الأَكمَهَ – وهو مَنْ وُلِد أَعمى – فتمنحُه الإِبصارَ بإِذن الله وتيسيره .

وحين تخرج الموتى من قبورهم أَحياءً – بعد أَن صارت رميا – بإِذن الله تعالى وتيسيره . وليس لعيسى من ذلك إلا إجراءُ الله ذلك على يديه. فالكُلُّ فعل الله أبرزه الله على يديه ؛ تأْييدًا له ، ومعجزةً تَشُدّ أَزرَ دعوته ..

ولهذا كرر الله إذنه فى كل معجزة من هذه المعجزات . حتى لا يتسرب إلى الذهن : أن تلك الخوارق من صُنع عيسى الذاتى .

(وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِى إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ) :

واذكر يا عيسى ، نعمتى عليك وعلى والدتك ، حين منعت من أراد السوء بك من بنى إسرائيل ، حين جئتهم بالمعجزات الواضحات ، سواء ما ذُكِر منها هنا أم فى موضع آخر ، كإخبارهم بما يأكلون وما يَدَّخِرون فى بيوتهم . فقال الكافرون منهم : ما هذا الذى جئت به إلا سِحْرٌ بَيِّنٌ واضح[١] .

(وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا ءَامَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾) .

المفردات :

(الْحَوَارِيِّينَ) : واحدهم حوارىّ ، وهو : مَنْ أَخلص سرًّا وجهرا فى مَودَّتك . وحواريُّو الأَنبياء : المخلصون لهم .

التفسير

١١١ - (وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِى وَبِرَسُولِى . . .) الآية .

المراد بالإِيحاءِ هنا : الإِلهام . ومنه قوله تعالى : « وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ ... »[٢] .

وهكذا أَلقى الله فى قلوب الحواريين الإِيمانَ به وبرسوله عيسى عليه السلام .

والمعنى على هذا : واذكر نعمتى عليك حين أَلهَمْتُ المخْلِصينَ لك : أَن يؤْمنوا بى ربًّا ، وبك يا عيسى رسولا . فاستجابوا ، وقالوا : آمنا بالله وبرسوله ، واشهد بأَننا مخلصون .

---

(١) راجع ماكتبناه فى قصة عيسى ومريم عليهما السلام ،فى سورة آل عمران ابتداء من الآية : ٤٥ إلى نهاية الآية : ٥١

(٢) القصص ، من الآية : ٧

(إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾) .

المفـردات :

(هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ) : هل يستجيب ربك .

(مَآئِدَةً) : المائدة ؛ الخوان الذى عليه الطعام ، أو الطعام نفسه .

(تَكُونُ لَنَا عِيدًا) : العيد ؛ السُّرور ، أو موسم السرور .

(وَآيَةً مِّنكَ) : أى علامة على صدق فى دعوتى ونُبُوَّتى .

التفسير

١١٢ - (إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ ...) الآية .

فى هذه الآية - والثَّلاث التاليات لها - قِصَّةُ المائدة التى إليها تُنْسَبُ هذه السورة . وهى من النعم التى أنعم الله عزَّ وجل بها على عبده ورسوله عيسى عليه السلام .

والمعنى : واذكر أيها المتأمل ، حين قال الحواريون : يا عيسى بن مريم ، هل يستجيب لك ربك إذا سألته أن ينزل علينا مائدة من السماء ؟

(قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) :

قال عيسى : خافوا الله ، فلا تقترحوا عليه الآيات ، تَأَدُّبًا معه تعالى ، إن كنتم مؤمنين بما جئتكم به .

١١٣ - (قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ) :

أى : نطلب المائدة لأربعة أسباب ؛ أن نأكل منها . وأن تطمئن قلوبنا بأننا على الحق ، بانضمام المشاهدة ، واللمس ، والذوق ، والشم ، إلى علم السمع . وأن نعلم - علم اليقين - أنك قد صدقتنا فيما جئتنا به بعد أن علمناه بالبرهان . وأن نكون على هذه المعجزة من الشاهدين عند الذين لم يَرَوْها من قومنا ، لِيؤمنَ كافِرُهم ، ويزدادَ الذين آمنوا إيمانا .

١١٤ -(قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا ...) الآية .

قال عيسى بن مريم - بعد أن علم من الحواريين أن سؤالهم كان لزيادة العلم واليقين - يا ألله ، ياربنا ، ومالكَ أمرنا ، ومتولى تربيتنا :

(أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ) :

لأول هذه الأمة وآخرها ، واجعلها آية منك وعلامة من لدنك : ترشد القوم إلى صحة نُبُوَّتِى.

(وَارْزُقْنَا) : منها ومن غيرها .

(وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) : ترزق من تشاءُ بغير حساب .

١١٥ - (قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ...) الآية .

هذا وَعْدٌ من الله تعالى - بإنزال المائدة . أجاب به سؤال عيسى . وهو يقتضى : أنه قد أنزلها ، فإن وعده الحق . وقد رتب الله - عز وجل - على هذا الوعد شرطا ، فقال سبحانه :

(فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ) :

أى : أن مَنْ يكفر منكم - بعد نزول هذه الآية التى اقترحتموها - فإنى أُعذبه عذابا لا أُعذبه أحدا من العالمين . حيث لا عذر لمن يرى الآيات تترى من رسوله ، ثم يطلب بعد ذلك آية على النحو الذى اقترحه ، فيجاب لها ، ثم بعد ذلك يكفر !!

أما صفة المائدة ، وأنواع طعامها ، فلم يجيء فيها دليل يُعَوَّل عليه !

ولهذا ينبغي ألا ينساق القارئ إلى مايُرْوَى فى ذلك من روايات . ويفوض الحقيقة لله .

وما أحسن قول بعض العلماء : العلمُ بذلك لا ينفع . والجهل به لا يضر !!

(وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾) .

المفـردات :

(سُبْحَانَكَ) : أى تنزيها لك عما لا يليق بك .

(وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا) : أى رقيبًا ، أو شاهِدًا لأحوالهم من كُفْر وإيمان .

(فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى) : التوفى ؛ أَخْذُ الشَّىْء وافيا كاملا ، ومنه الموت ؛ لأن الميت استوفى أَجَلَه .

(الرَّقِيبَ) : المطَّلِعَ على أحوالهم .

التفسير

١١٦ - (وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ...) الآية .

أفادت هذه الآية : أن الله - سبحانه - يبكت أتباع عيسى على اتخاذه وأمه إلَهَيْن من دون الله . وأن عيسى - عليه السلام - تبرأً من دعواهم هذه . وأشهد اللهَ على براءته .

ويرى بعضُ العلماء : أن ماجاء فى الآية حَدَثَ فى الدنيا .

ويرى آخرون : أنه سَيحْدُثُ فى الآخرة .

والتعبير بلفظ (قال) ؛ لتحققه .

وإليه ذهب قتادة .

والمعنى على هذا : واذكر يامحمد للناس ، وقت قول الله - عزَّ وجل - فى الآخرة ؛ توبيخا للكفرة ، وتبكيتا لهم : أأنت ياعيسى ، قلت للناس : اتخذونى وأُمِّىَ إلَـهَيْن من دون الله ، مع أنك أُرسلت إليهم بدعوة التوحيد ؟

وقد نعى الله على الذين اتخذوا المسيح إلّها ، فى مواضع عدة من هذه السورة .

وعبادة أُمه كانت معروفة فى الكنائس الشرقية والغربية ، وسُمِّىَ الذين عبدوها : « المَرْيَمِيُّونَ » . . . وهذه العبادة منها :

ماهو صلاة ذات دعاء وثناء على المعبود .

ومنها ماهو استغاثة ، واستشفاع .

ومنها ماهو صيام ينسب إليها ، ويسمى صيام العذراء .

وكل ذلك يقترن بخضوع وخشوع لذكرها ولصورها ولتماثيلها ، واعتقاد السلطة الغيبية لها ، وأنها تنفع وتضر : فى الدنيا والآخرة ، إما بنفسها أو بواسطة ابنها . ويسمونها : « والدة الإلّه » .

ولا تزال هذه الصور موجودةً لدى طوائف المسيحيين على اختلاف مذاهبهم .

(قَالَ سُبْحَانَكَ) :

أى : تنزيهًا لك يا ألله ، عن أن يكون معك إلّه آخر .

وبذا ، نزَّه عيسى ربَّه – على رءُوس الأَشهاد – عن المشاركة فى الذات والصفات ، مع الخضوع لعزته والخوف من سطوته .

(مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ) :

أَى : ليس من شأْنى – ولا ينبغى لى – أَن أَدَّعِيَ لنفسى ما ليس من حقها ، فأَنا مَرْبُوبٌ ولست برب ، وعابد ولست بمعبود . وذلك القول – بافتراض صدوره منى ، فقد علمته . إذ عِلْمُكَ واسِعٌ محيط بكل شىء : تعلم سِرِّى وما انطوى عليه ضميرى . ولا أَعلم شيئا مما استأْثرتَ به من غيبك وعلمك ، إلا بِقَدْرِ ما تُظْهِرُه لى بالوحى . فالشك المفهوم من قوله : (إن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ) افتراضى لا حقيقى ، ليقين عيسى عليه السلام بأَنه لم يَقُلْه .

(إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ) :

إنك أَنت المحيط بجميع الغيوب ، لا يخفى عليك شىء منها ، فى الأَرض ولا فى السماء .

ومن كان كذلك ، فلا تخفى عليه براءَتى مما نسبه إِلَيَّ مَنْ أَلَّهُونِى وأُمى .

١١٧ – (مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ...) الآية .

هذا تأْييد لعدم شكه ، وأَن الشك ادعائى أَو افتراضى ، إمعانا فى العبودية ، وإعظاما للربوبية .

أَى : ما قلتُ لهم إلا ما أَمرتَنى بإبلاغه إليهم . وهو الأَمر بعبادة الله ربى وربهم ؛ لأَن الله خصّنى بالرسالة إليهم . وما كان لرسول أَن يُغَيِّرَ فى تبليغ الرسالة .

(وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ) :

أَى : وكنت عليهم مراقبا لأَحوالهم ؛ مرشدا لهم مدة بقائى بينهم .

(فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى) :

أَى : فلما رَفَعْتَنِى إليك ؛ مستوفيا ما قدرته لى ؛ إنجاءً لى من كيد بنى إسرائيل وتدبيرهم لقتلى .

وقد جاء التَّوَفِّي بهذا المعنى ، فى قوله تعالى : « . . . يَاعِيسَى إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ... »[(١)] .

ولا ينبغى أَن يحمل على الإِماتة ؛ لأَن إِماتة عيسى - فى الوقت الذى كان فيه بنو إِسرائيل يتربصون له ، ويتحينون الفرصة للفتْك به - ليس فيها تكريم له .

(كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ) :

كنت أَنت المطلعَ عليهم دونى ، والعليمَ بأَحوالهم ؛ لأَنى شَهِدتُ من أَفعالهم ما عملوه مدة وجودى معهم .

(وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) :

أى : أَنت وحدك المحيط علما بكل شىء . فلا تخفى عليك أَحوالهم ولا أَحوال غيرهم .

١١٨ - (إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) :

أى : إِن تعذبْ من أَرسلتنى إِليهم وقمتُ بتبليغهم ما أَمرتنى به من توحيدك وعبادتك ، فآمن منهم مَنْ آمَن ، وكفر منهم مَنْ كَفر - فإِنما تعذب بالعدل من يستحق التعذيب ؛ لكفرهم بعد وجوب الحجة عليهم ، وإِن تغفرْ لمن آمن - وكان أَهلا لفضلك - فذلك تَفَضُّلٌ منك وأَنت العزيز الغالب لا يمتنع عليك ما تريد . الحكيم فى تَصرفك وصُنْعِك : تضع كل جزاء فى موضعه .

(قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾) .

(١) سورة آل عمران ، من الآية : ٥٥

التفسير

١١٩ - (قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ...) الآية .

هذه إجابة من الله تعالى ؛ يوم القيامة ، أجاب بها عيسى عليه السلام ؛ بعد ما تبرأ من ادعاء قومه ألوهيته ، وألوهية أمه ، وردّ الأمر فيه إلى الله تعالى .

والمعنى: (قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ) فى توحيد الله وعبادته فى الدنيا ، حتى لقوا ربّهم .

(لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) :

أى : لهؤلاء الصادقين فى توحيده ، جناتٌ تجرى من تحتها الأنهار ، ثوابا جزيلا من عند الله ؛ حيث رَضِيَ عنهم رضًا مابعده رضا ، وذلك هو الفوز العظيم ، الذى لا مطلب لهم بعده .

وبعد أن بين عز وجل ، ما لأهل الصدق عنده من الجزاء الأوفى ، بين عقبه - فى ختام السورة - سعة مُلْكِهِ وتفرده به ، وشمول قدرته فقال :

١٢٠ - (لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) :

أى: إن الملك كله ، والقدرة الكاملة - فى السموات والأرض - لله وحده . فلا مُلْك ولا تصرف لعيسى وأمّه ولا لغيرهما فيهما . فهما داخلان - ضمنا - تحت قبضته كسائر خلقه .

وغاية ما أعطاهما : الكرامة لديه ، والمنزلة الرفيعة بين عباده .

ســـورة الأنعـام

وآياتها : ١٦٥ نزلت بعد الحِجر

هذه السورة مكية إلا بعض آيات فمدنية ، وآياتها خمس وستون ومائة ، نزلت بعد سورة الْحِجْر . وقد نزلت دفعة واحدة .

فعن ابن عباس أنها نزلت ليلًا جملة .

وهى تناسب سورة المائدة فى أغراضها المختلفة .

ومن ذلك محاجة أهل الكفر .

ففى سورة المائدة دار الحجاج مع أهل الكتاب . وفى سورة الأنعام دار الحجاج مع من فى مكة من المشركين والمبتدعين والمكذبين بالبعث والنشور .

ومن ذلك أنهما – كلتيهما – تضمنتا أحكام الأطعمة ، إلى غير ذلك من المناسبات وتنفرد – بكثرة ذِكْرِ الشِّرْك والمشرك والمشركين – فقد ورد ذلك فيها فى عشرين موضعا .

ومن مقاصدها :

١ – تقرير وحدانية الله تعالى – وما يجب له من صفات الكمال ، وهدم عقيدة الشرك ، وتقويض أركانه . بالحجة والبرهان .

فقد قال العلماءُ فى هذه السورة : إنها أصل فى محاجة المشركين وغيرهم من المبتدعين ومن كذَّب بالبعث والنشور .

وعليها بَنَى المتكلمون أُصولَ الدِّين .

وقد بين الله تعالى – فى صدرها أنه يستحق الحَمْدَ وحْدَه ، فإنه هو الذى خلق السموات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ، وذكر أن الكافرين يعدلون به آلهتهم ، حيث جعلوها شركاءَ له فى الأُلوهية ، مع أنهم يُقِرُّون بأنه هو الخالق لهذا الكون دون آلهتهم . كما قال تعالى :

« وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ... »[1] .

(١) العنكبوت ، من الآية : ٦١

ثم يتبع ذلك بالآيات البينات ، الدالة على وحدانيته تعالى ، حتى يصل إلى محاجة إبراهيم لقومه فى شأن عبادة الأصنام والكواكب .

وقد جاءت تلك المحاجة فى أسلوب التنزل مع المشركين والتظاهر بأنه - عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام - يسايرهم فى عقائدهم ، ليثبت لهم - فى النهاية - فساد عبادتهم لها ، ويقول لهم : (وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ [٨١] الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ [٨٢]) .

ثم يستمر السياق من آن لآخر ، يُذَكِّرُ الناسَ بعظمة الله وتَفَرُّدِهِ بالألوهية ، حتى تنتهى قبيل نهاية السورة بقوله : (قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ... [١٦٤]) .

٢ - التنبيه إلى خطإ الكافرين فى تكذيب النبى صلى الله عليه وسلم - وبيان أنهم وصلوا من العناد ، إلى أنهم لو نَزَل عليهم كتابٌ من السماء ولَمسوه بأيديهم ، وتحققوا من نزوله من السماء ، وكان هذا الكتاب يدعوهم إلى الإيمان بالرسول - لزعموا أنه سحر مبين ، وجاء فيها بعد ذلك بيان فساد رأيهم فى طلب أن يكون الرسول مَلَكًا ، إذ أنه لو نزل بصورته الحقيقية لهلكوا ؛ لأنهم لا يحتملون لقاءه . ولو نزل بصورة بشر لالتبس الأمر عليهم .

٣ - تسلية الرسول بما أصاب الرسل قبله من سخرية أقوامهم بهم وتكذيبهم إياهم ، وتهديد مكذبى الرسول بمثل عاقبة المكذبين قبلهم .

ثم يمضى الحجاج بين الرسول وبين قومه ، فى أنحاء السورة ، ويبين تارة أن على قلوبهم أكنةً أن يفقهوه ، وفى آذانهم وقرا . وتارة أخرى أنهم إن يَرَوْا كل آية لا يؤمنوا بها ، ويقولوا سحر مبين .

ثم تمضى السورة فى هذا الحوار العجيب ، بين الحق الواضح والباطل الفاضح ، حتى تدمغهم وتدحض حججهم .

٤ – فقدان الكفار ميزات الإنسانية ، فهم مَوْتَى ، والموتى لا يستجيبون إلى الحق ، وهم صم وبكم فى الظلمات؛ وتهددهم بالإبادة إن استمروا على كفرهم : (قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ [٤٧]) .

٥ – بيان الرحمة الإلٰهية بالإنسان وأن الكفار (... مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَآ أَنزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ... [٩١]) .

وتذكر أن الله أمر الرسول أن يقول – ردًّا على هذا الافتراء – (... مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِى جَآءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ... [٩١]) .

وتذكر لهم : أن القرآن كتاب – أنزله الله – مبارك ومصدق لما تقدمه من الكتب السماوية وأن الرسول مكلف أن ينذر به أُمَّ القرى ومَنْ حولها ، وأن الذين يؤمنون بالآخرة – أينما كانوا على ظهر البسيطة – يؤمنون به ، وأنه لا يوجد أظلم ممن يفترى الكذبَ على الله ، ويدعى أنه أُوحى إليه شىء . وأن مَن كذب على الله سيُجزَى يوم القيامة عذاب الهون .

٦ – العودة إلى دعوتهم إلى الإيمان بكتاب الله بصورة محببة ؛ وذلك بقوله تعالى فى أواخر السورة : (وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ [١٥٥]) .

٧ – إبراز حقيقة البعث ، وإقامة الأدلة عليها ، والكلام على الجزاء فيها ، ووعْدُ المؤمنين بمزيد الثواب ، ووعيد الكافرين بشديد العقاب .

وقد بدأ الحديث عن يوم القيامة بقوله تعالى فى أول السورة : (هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ [٢]) ثم قال عزَّ وجل : (... لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ... [١٢]) ثم قال سبحانه : (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَآءِ اللهِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَاحَسْرَتَنَا عَلَى مَافَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَآءَ مَايَزِرُونَ [٣١]) ثم قال تعالى : (قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ [٤٠]) .

وهكذا مضت السورة تهتم بشأن الحديث عن البعث ، ومصير الناس إلى ربهم ، لكى يتبصروا فى عواقب ما هم عليه ، ويعملوا للخلاص من العذاب ، ونَيْلِ جميل الثواب .

وآخر ماجاء عنه فى هذه السورة ، قوله تعالى : (... ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ [١٦٤]) .

٨ – رسم معالم الدين الحق ، ومناهج السلوك الفاضل . وأعظمها : الإيمان بالله ، وتصديق الرسل ، والإصلاح فى جميع الأعمال : (وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ [٤٨]) .

ومن تلك المناهج : أن نُعْرِضَ عمَّن يخوضون فى آيات الله ، حتى يخوضوا فى حديث غيره . فإن نسينا فلا نقعد بعد التذكرة مع القوم الظالمين [١] .

ومنها : دوام تذكير الذين اتخذوا دينهم لَعِبًا وَلَهْوًا ، حتى لا تهلك نفس بما كسبت [٢] .

ومن مناهج السلوك الفاضل أيضا : إقامة الصلاة ، وتقوى الله [٣] .

ومنها : أَلَّا نَسُبَّ الذين يدعون من دون الله فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بغير علم [٤] .

ومنها : تأثيم الذين يقتلون أولادهم سَفَهًا ، والذين يُحَرِّمون ما فى بطون الأنعام على الإناث ، ويُحِلُّونها للذكور : (... وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ ... [١٣٩]) وغير ذلك مما استحدثه المشركون فى المطاعم ، وحَرَّموا مارزقهم الله افتراءً على الله [٥] .

وقد تبعها ببيان أن الرسول لايجد شيئا حرَّمه الله من المطاعم ، إلا أن يكون ميتةً ، أو دما مسفوحا ، أو لَحْمَ خِنزير ، أَوْ ذبيحةً مذكورا عليها اسم غير الله ، وأن المضطر : يغفر الله له [٦] .

---

(١) انظر الآية : ٦٨ من سورة الأنعام .
(٢) انظر الآية : ٦٩ من سورة الأنعام .
(٣) انظر الآية : ٧٢ » » .
(٤) انظر الآية : ١٠٨ » » .
(٥) انظر الآيات من : ١٣٨ – ١٤٤ من سورة الأنعام .
(٦) انظر الآية : ١٤٥ » » .

٩ ـ بيان ما أنعم الله علينا من إنشاء جنَّاتٍ معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا أُكُله ، والزيتون والرُّمان ، متشابها وغير متشابه .

١٠ ـ وجوب زكاة الزرع ، فأوجب عليهم أن يؤْتُوا حَقَّهُ يوم حصاده .

١١ ـ الوصايا العشر التى تعتبر جماعا لشتّى الفضائل ، من : توحيدِ الله ، والبِرِّ بالوالدين ، والابتعادِ عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وعدم قتل النفس إلا بالحق ، والامتناعِ عن تناول مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يَبْلُغَ أَشُدَّه ، وإيفاءِ الكيل والميزان بالقسط ، والعدلِ فى القولِ ولو كان ضد الأقارب ؛ والوفاءِ بالعهد ؛ واتباع سبيل الله دون غيرها[١] .

١٢ ـ وجوب وَحْدة الدين ، وعدم التَّفَرُّقِ فيه : (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ... [١٥٩]) .

١٣ ـ بيان أن جزاءَ الناس على حسب أعمالهم ، ودرجة انبعاثها عن ضمائرهم ونفوسهم . كما قال تعالى : (... سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ [١٣٩]) وأنه لا تحمل نفس وزر نفس أخرى ، (... وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى [١٦٤]) .

وأن الجزاءَ على الأعمال يتناول ظاهرها وباطنها . كما جاءَ فى قوله تعالى : (وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ... [١٢٠]) .

١٤ ـ كما اشتملت ـ فى مقاصدها ـ على الحث على السياحة ، والسير فى الأرض ؛ للنظر والاعتبار قال تعالى :

(قُلْ سِيرُوا فِى الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ [١١]) .

١٥ ـ الحث على البحث فى علوم الكائنات ؛ لمعرفة سنن الله الكونية الدالة على علمه وحكمته ، ووافر قدرته ورحمته ، ومن ذلك قوله تعالى :

(إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَىِّ ...) إلى قوله تعالى : (انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)[٢] .

---

(١) انظر الآيات من : ١٥١ ـ ١٥٣ . من سورة الأنعام . (٢) الآيات : ٩٥ ـ ٩٩ من سورة الأنعام .

١٦ – بيان أن عالَم الحيوان عالَم عظيم ، يشبه – فى أموره الكثيرة – عالَمَ الإنسان ؛ (وَمَا مِن دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا طَآئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّافَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِن شَىْءٍ . . . [٣٨]) . وتعتبر هذه الآية الكريمة أساسا فى علم الحيوان .

١٧ – كما اشتملت على أنه تعالى ، كتب على نفسِهِ الرحمة لمن تاب ؛ قال تعالى : (. . . كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَاب مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ [٥٤]) .

إلى غير ذلك من عظائم الأُمور ، التى احتوتها هذه السورة الجليلة ، التى تعتبر أعظم دستور للحياة الصحيحة ، والسلوك النظيف ، والعقيدة المستقيمة . وكان نزولها بمكة ، فى صدر الإسلام ، حكمة من صنع الحكيم الخبير .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾) .

المفـردات :

(ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ) : أى يُسوُّون به غيرَه ، تعالى الله عن ذلك .

(ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا) : أى قدّر حدًا معينا من الزمان .

(وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ) :أى وأجلٌ آخرُ معينٌ عنده سبحانه وتعالى ؛ لا يعلم وقتَ حلوله سواه ، وهو وقت البعث والجزاء .

(ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ) : أى ثم أنتم تَشُكُّون فى البعث ، وتجادلون فيه .

التفسير

١ - (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ...) الآية .

الثناء بالجميل : مستحَق لله الذى أبدع السموات ، بما اشتملت عليه من مجرات عظيمة ، ونجوم مُتَّقِدة ، وكواكب منيرة ، وكائنات وعجائب لا يعلمها سواه . وأبدع الأرض وما فيها من يابس وماءٍ ، وهضاب ووهاد ، وإنسان وحيوان وزروع نضرة ، وثمار نافعة ، وغير ذلك من الروائع .

(وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ) : لتكون للناس سكنا .

(وَالنُّورَ) :أى وجعل النور ، ليكون مجال نشاطهم ، وسرّ الحياة لزروعهم وحيواناتهم .

(ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ) :

هذا تعجب من النتيجة أى - مع هذا الإبداع - الذين كفروا ، يسوون ربهم - الذى أبدع هذه الكائنات - بما لا يملك لهم ضرا ولا نفعا ، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا !

٢ - (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ...) الآية .

أفادت هذه الآية : أن الله تعالى ، خلق الناس من طين . وهى تشير إلى المادة التى خلق الله منها آدم ؛ أصل البشرية .

وإذا كان أصل الإنسان من طين ، فكل أولاده – إلى يوم القيامة – يعتبرون مخلوقين من طين أيضا ، باعتبار أصلهم .

ويجوز أن يراد من الآية : ما هو مشاهد ، من أن الطين مادة هامة فى حياتنا .

فمن الأغذية التى تكونت من الطين ، تحيا الكائنات .

ولتلك الأغذية دخل كبير فى تكوين النطف والبويضات ، التى هى أساس الأجيال الإنسانية والحيوانية .

على أننا لو حللنا مادة الأجسام البشرية إلى عناصرها الأولية ؛ لوجدناها من العناصر التى يتكون منها الطين . مثل الكربون والكلسيوم والحديد ... إلخ .

(ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ) :

أى ثم قدر حدًّا معينا من الزمان – بَدْءًا ونهاية – لكم فى هذه الدنيا ، وقضى حدًّا من الزمان ، تبعثون فيه : سماه الله عنده وعيَّنه لديه . لا يعلمه سواه .

(ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ) :

يطلق الامتراءُ على الشك ، والجدل ، والإنكار ، مع وضوح الأدلة ... وكُلٌّ من هذه المعانى ، يجوز أن يراد هنا : أى ثم أنتم أيها المشركون – مع وضوح هذه الدلائل – تَشُكُّون فى الحق ، وتجادلون فيه ، وتصلون فى جدالكم إلى حد الإنكار و(ثُمَّ) الأولى : للترتيب الزمنى . أما الثانية : فلبيان تراخيهم فى الاستجابة للحق وامترائهم فيه .

٣ – (وَهُوَ اللَّهُ فِى السَّمَٰوَٰتِ وَفِى الْأَرْضِ ...) الآية .

أى : وهو الإلٰه المدبر المعبود ، فى السمٰوات وفى الأرض .

(يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ) :

يعلم ما انطوت عليه قلوبكم، وما تفعلون بجوارحكم علانية .

(وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ) :

من الخير والشر ، فيحصى ذلك عليكم ، ليجازيكم به عند معادكم .

وفى هذا استدعاءٌ للإنسان الشارد عن الله ، الغافل عن ذكره ، المستخف بشرائعه : أن يعود إلى الله ، وأن يخشاه ، ويتقِىَ محارمه ؛ لأن الله يطلع على كل ما ظهر وما بطن .

(وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾) .

المفـردات :

(مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ) : المراد بالآيات ؛ القرآن ، أو ما يعمه ، من الآيات الكونية .

(مُعْرِضِينَ) : الإعراض ؛ الانصراف عن الشيء .

(مِن قَرْنٍ): القرن ؛ مدة من الزمان يعيش فيها أهل عصر[1] . وقد يطلق على أهله ، وهو المراد هنا .

---

(١) اختلف فى تحديد مدة القرن ، وأشهر الأقوال : أنه مائة سنة .

(مَكَّنَّاهُمْ فِى الأَرْضِ) : جعلناهم مُتَمَكِّنِينَ من التصرف فيها .

(وَأَرْسَلْنَا السَّمَآءَ) : أى المطر ، وعَبَّر عنه بالسماء ؛ لأنه ينزل منها . فإن السحاب سماء .

(مِدْرَارًا) : متتابعا .

التفسير

٤ - (وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ) :

وما تأْتيهم من حجة من حجج ربهم : دالة على وحدانية الله تعالى وصدق رسوله - سواءٌ أكانت قرآنية أم كونية - إلا قابلوها بالإعراض عنها ، وعدم التدبر فيها .

٥ - (فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ...) الآية .

أى فقد زادوا - على إعراضهم - تكذيبهم بالحق حين جاءهم على لسان محمد صلى الله عليه وسلم ، من غير تَرَيُّث ولا تفكر .

(فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَآءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) :

الأنباءُ : الأخبار . والمراد بها هنا ؛ ما أنبأهم الله به من العقوبة على تكذيبهم .

والمعنى : فسوف تأْتيهم العقوبات التى تَوعَّدَهم الله بها ، جزاء تكذيبهم بالحق ، وإصرارهم على هذا التكذيب .

٦ - (أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِى الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ...) الآية .

أى : أَلَم يعلم هؤلاءِ المكذبون - بمعاينة الآثار ، وسماع الأخبار - كم أهلكنا قبلهم من أهل قرن : مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم ، حيث مَنَحْناهم الغِنَى والسعة والاقتدار على التعمير . فعمروا الأرض ، وبَنَوْا الحصون والقصور .

(وَأَرْسَلْنَا السَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ) :

أى وأرسلنا عليهم السحاب يدر عليهم المطر الغزير ، وجعلنا الأنهار تجرى من تحت مساكنهم ، وبين مزارعهم . فيستمتعون بحسن مرآها ، وجمال جريانها ، ولا يجدون صعوبة فى الانتفاع بها .

(فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ) :

أى فكان عاقبة أمرهم : أن أهلكنا أهل كل قرن منهم ، بسبب ذنوبهم التى كانوا يَجْتَرِحُونَهَا ، وأوجدنا — من بعدهم — ناسا آخرين يعمرون البلاد .

وفى هذه الآية وعيد لأهل مكة ، بمثل ما عوقبت به الأمم السابقة ، من الإهلاك بكفرهم وذنوبهم ؛ كما أُهْلِك هؤلاء السابقون ، ولم تغن عنهم قُوَّتُهُم وتمكينهم شيئا .

(وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾) .

المفـردات :

(فِى قِرْطَاسٍ) : القرطاس ؛ — بتثليث القاف ، والكسر أشهر — ما يكتب فيه .

(فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ) : اللمس ؛ كالمس ؛ إدراك الشىء بظاهر البشرة . وقد يستعمل بمعنى طلب الشىء والبحث عنه . والمراد هنا : الأول .

(إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ) : أى خداع وتمويه .

(لَقُضِىَ الْأَمْرُ) : أى لَتَمَّ أَمرُ إهْلاكهم .

(ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ) : أى لا يمهلون طرفة عين .

(وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ) : من اللَّبْسِ وهو : الخَلْط . تقول : لَبَس الحق بالباطل يلبسُه به . أى خلطه به ، حتى اشتبه على الناس .

التفسير

٧ - (وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ ...) الآية .

لقد بلغ الحزن والأسف ، من الرسول صلوات الله وسلامه عليه كل مبلغ ، لتمسُّكِ قومه بالكفر به ، مع وضوح برهانه ، وقيام حجته .

فبين الله فى هذه الآيةِ : أنه لا سبب لكفرهم ، إلا مجرد العناد والمكابرة .

(وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ) أى يامحمد (كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ) أى كتابا مكتوبا فى صحائفه فلمسوه بأيديهم ، وتيقنوا من معرفته وأنه منزل من الله عليك .

(لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ) :

أى لقال الذين كفروا : ما هذا الكتاب الذى نزل ، إلا سحرٌ بيِّنٌ واضح التمويه . وإنما قالوا ذلك ؛ إمعانا فى الجحود والعناد .

٨ - (وَقَالُوا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ...) الآية .

روى ابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، عن محمد بن إسحق ، فى سبب نزول هذه الآية فقال : « دعا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم قومَه إلى الإسلام ، وكلَّمهم فأبلغ . فقال . زمعة بن الأسود بن المطلب ، والنضر بن الحرث بن كَلدة ، وعبدة بن عبد يغوث ، وأُبَىُّ بن خلف ، والعاصى بن وائل بن هشام : لو جُعِلَ معك يامحمد ، مَلَكٌ يحدّث عنك الناس ، ويُرى معك ؟ » . فأنزل الله فى ذلك قوله :

(وَقَالُوا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ) :

والمعنى : هلَّا أُنزل على محمد ملكٌ نشاهده معه ، ويخبرنا أنه رسولٌ من عند الله ، فيكونَ معه نذيرا ؟

وقد أجاب الله على مقالتهم بجوابين : الأول قوله تعالى :

(وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ) :

أى لو أنزلنا عليه ملكا ، فى صورته الحقيقية وشاهدوه بأعينهم ، لزهقت أرواحهم من هول ما يشاهدون ، من غير تأخير أو انتظار . أو لأن الله أجرى سنته بأن مَن طلب آية وأجيب لها فلم يؤمن ، عَذَّبه الله فى الحال - عذاب استئصال .

ومن أجل هذا ، لم يستجب الله لِمُقْتَرَحِ أهل مكة ، حتى لا ينزل بهم عذاب الاستئصال إذا كذبوا ، تكريما لنبيه صلى الله عليه وسلم ، وتحقيقا لوعده « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ » [1] .

والجواب الثانى قوله تعالى :

٩ - (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ) :

أى لو جعلنا النذير الذى اقترحوا إنزاله معه مَلَكا ، لمثلناه رجلا ؛ لِيَقْوَوْا على مشاهدته وسماع كلامه ، لعدم استطاعتهم رؤية الْمَلَكِ على صورته الأصلية .

ومن أجل هذا ، كانت الملائكةُ تأتى الأنبياء فى صورة الإنس أحيانا . كما جاء جبريل عليه السلام إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فى صورة دِحْية الكلبى . وكما أتت الملائكة إلى إبراهيم ولوط - عليهما السلام - فى صورة رجال .

ولو جعلناه فى صورة بشر ليأنسوا به ، لاعتقدوا أنه بشرٌ ، لأنهم لا يدركون منه إلا صورته وصفاتِهِ التى تمثَّل بها . وحينئذ ، يقعون فى نفس اللَّبْسِ والاشتباه الذى وقعوا فيه ؛ بسبب كَوْنِ الرسول بشرا يقترحون جَعْلَه ملكًا .

وإذا كان إرسال الْمَلَكِ سيؤدى إلى هذه النتيجة - أو تلك - فليس من الحكمة جعل الرسول مَلَكا . بل الحكمة : أن يكون بشرا من بينهم ، مؤيَّدا من الله بالمعجزات حتى يمكن الاقتداء به .

---

(١) الأنفال ، الآية : ٣٣

(وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾) .

المفــردات :

(فَحَاقَ) : حاق به الأمر ؛ أحاط به . ولا يكاد يستعمل إلا فى الشر .

التفسير

١٠ ـ (وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) :

لما كان اقتراحُ المشركين إنزالَ المَلَك على الرسول من باب الاستهزاء ، أنزل الله تعالى هذه الآية ، لتسليته صلى الله عليه وسلم بأَنَّ ما حَدَثَ له ، قد حدث مثله لإخوانه المرسلين من قبله ، ولتهديد المشركين بأنهم سيصيبهم ما أصاب مَنْ قبلهُم إن استمرُّوا على كفرهم .

أخبر الله رسوله خبرا مؤكدا بصيغة القسم : أن الكفار قد استهزءوا برسل كرام قبلك ، كما جاءَ فى قوله تعالى : «وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ»[1] فليس بدعًا ماتراه من صناديد الكفر من قريش . وقد استهزءوا بك وسخروا منك . فما ذلك منهم إلا جَرْيا على آثار أعداء حَمَلَةِ الهدى من عباد اللهِ قبلهم ، وقد حاق بأُولئك الساخرين من العذاب ما يستحقونه ، جزاءَ أفعالهم الشنيعة ، وسوءِ صنيعهم مع مَن اصطفاهم ربهم من خلقه .

---

(١) الحجر ، الآية : ١١

وفى الآية :

١ - تعليم للنبي صلى الله عليه وسلم ، سُنَنَ الله فى الأُمم مع رسلهم .

٢ - تسلية وعزاءٌ له مما يلقى من المشركين من عناد ، وما يساق إليه منهم من ضُرٍّ وأذى ، وتثبيت لقلبه ، وإعانةٌ له على المضى فى تبليغ رسالته .

٣ - بشارة له بحسن العاقبة ، وماسيكون له من نصرٍ وتأْييد ، وقد كان جزاءُ المستهزئين - بمن قبله من الرسل - عذابَ الخزى باستئصال . ولكن الله كفاه المستهزئين به ، فأَهلكهم ولم يجعلهم سببا لهلاك قومهم : « إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ »[1] .

ولما كان ما يحل بالمستهزئين بالرسل من الهلاك - بحسب سنة الله المطردة فيهم ، مما يرتاب فيه مشركو مكة لجهلهم بالتاريخ ، وعدم تسليمهم بخبر الآية - أَمر الله تعالى رسوله ، بأَن يدلهم على الطريق الموصل إلى علم ذلك بأَنفسهم . فقال :

١١ - (قُلْ سِيرُوا فِى الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ) :

أَى قلْ يامحمد ، للمكذبين المستهزئين بك من قومك ، المحبين للأَسفار مع الغفلة ، عن شئون الأُمم ، والاعتبار بعاقبة الماضين ، وأَحوال المعاصرين : سافروا فى الأَرض - كشأْنكم وعادتكم - وتنقلوا فى ديار أُولئك الأُمم الذين مَكَّنَّاهم فى الأَرض ، ثم انظروا - فى أَثناء رحلاتكم صيفا أَو شتاءً - آثارَ ماحل بهم من دَمار ساحق ، وعذاب أَليم . وتأَملوا كيف كانت آخرتهم ونهايتهم : بما تشاهدون من آثارهم ، وماتسمعون من أَخبارهم ، ليكون فى ذلك لكم عبرةٌ إن لم تصدقوا ولم تزجرْكم حُجَجُ الله عليكم !!

---

(١) الحجر ، الآية ; ٩٥

(قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ * وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾) .

المفردات :

(كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ) : أى أوجبها على نفسه ، فضلا منه وكرما .

(وَلَهُ مَا سَكَنَ) : سكن ؛ من السُّكنى . والمعنى : ما اشتمل عليه الليل والنهار . وقيل : سكن هنا ؛ من السكون .

والمعنى وله ما سكن فى الليل والنهار وما تحرك . فاكتفى بأحد الضدين عن الآخر . كما جاء فى قوله تعالى : « ... سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ ... »[1] أى والبرد .

(وَلِيًّا) : أى ناصرًا ومغيثًا .

---

(١) النحل ، من الآية : ٨١

(فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) : مبدعهما على غير مثال يحتذى من الفَطر وهو : الإبداع والإيجاد .

(وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ) : أى هو الرازق لغيره ولا يرزقه أحد .

(مَن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ) : أى يبعد عنه العذاب يوم القيامة .

التفسير

١٢ - (قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ ...) الآية .

بَيَّنَ الله عز وجل ، فى الآيات السابقة ، أُصول الدين الثلاثة : التوحيد ، والبعث ، والجزاء .

وبَيَّنَ شبهاتِ الكفار على رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، مع ما يدحضها .

كما أَرشد رسولَهُ ، إلى سُنَّته فيمن كَذَّب الرسل ، وأَن عاقِبَتَهم الخِزْىُ والدمار .
ثم قفّى على ذلك ، ببيان أَدلة وجود الله ووحدانيته وشمول ملكه .

والمعنى : قل أَيها الرسول ، لقومك ، الجاحدين لرسالتك ، المعرضين عن دعوتك : لِمَنْ هذا الكون : علويه وسفليه . بما فيه من عجائب وغرائب ؟ (قُل لِّلَّهِ) .

وإنما أمر اللهُ رسولَه بأَن يتولى الإجابة عنهم ، لأَن هذا الجواب معترف به منهم : لا يسعهم إنكارُه . فقد كانوا يعترفون بذلك . قال تعالى : «وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ ... »[1]

فإذا سأَلتهم : لِم تعبدون غيره من أَصنام وأَوهام . وأَنتم معترفون بذلك ؟ أَجابوا بقولهم :

« ... مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى ... »[2]

والمقصود من السؤال - كما ذكر صاحب الكشاف - التبكيت والتوبيخ .

(كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ) :

---

(١) العنكبوت ، من الآية : ٦١ (٢) الزمر ، من الآية : ٣

أى أوجبها على نفسه ، كَرَمًا منه وفضلا . وقد شمِلَ برحمته فى الدنيا المؤْمنَ والكافر ، والْبَرَّ والفاجر . فلا تغترُّوا أيها الكفار بما تنالون فى الدنيا من رحمته . واعملوا ليوم يجمعكم فيه للحساب والجزاء . كما قال سبحانه :

(لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ) :

يؤكد الله تعالى فى هذه الجملة : أنه سَيُحْيِى الناسَ ويَبْعثُهم فى يوم القيامة ؛ الذى لا ينبغى أن يرتاب فيه عاقل .

ولا ريب أن تهديد الناس بهذا اليوم العصيب ، يعتبر من رحمة الله بالناس . إذ لولا الخوف من عذاب الله يوم القيامة ، لَعَمَّ الفسادُ فى الأرض . واختلت نُظمُ الاجتماع ، وأكَلَ القوىُّ الضعيف ؛ - ولا وازع ولا زاجر - فصار من رحمة الله التهديد بهذا الجمع ؛ لأجل الحساب والجزاء . كما أنه حافز للمؤمنين على زيادة الطاعة ، رغبة فى حسن الجزاء .

(الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) :

أى الذين خسروا أنفسهم بإهدار قُواهم العقلية ، وتعطيلها عن النظر فى آيات الله ، فهؤلاء ، لا يؤمنون بما دعوتهم إليه ، من توحيد الله ، والإيمان بيوم البعث والنشور .

(وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) :

هذا معطوف على ماقبله . أى لله ما فى السموات وما فى الأرض ، (وَلَهُ مَاسَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) : أى مَا اشتمل عليه الليلُ والنهارُ من موجودات . فكل ما طلع عليه النهار وغشيه الليل والظلام ، هو فى ملك الله وحده . وهو السميع لكل ما من شأنه أن يُسمَع ، العليم بكل ما من شأنه أن يُعلَم . سبحانه !! يعلم دبيبَ النملة فى الليلة الظَّلْماء « يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ »[١] ، « ... يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَآءَ ... »[٢] .

---

(١) غافر ، الآية : ١٩ (٢) البقرة ، من الآية : ٢٥٥

ومن كان كذلك ، فلا يغيب عنه إيمان مؤمن ، ولا كفر كافر ، ولا دعوة داعٍ ، ولا حاجة محتاج .

١٤ - (قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ..) الآية .

أى قل يامحمد ، وقد دعوك إلى دين آبائك .

إن الله تعالى ، أمرك : أن تنكر ما دعوكَ إليه ، من اتخاذ غير الله تعالى معبودا ، وهو الذى له ما فى السموٰات وما فى الأرض . وله ما سكن فى الليل والنهار - وهو الذى فطر السموٰات والأرض ، وأبدعهما على غير مثال سبق . وهو الذى يرزق غيرَه ، ولا يرزقه غيرُه. فهو الذى يرزق الكائنات الحية ويطعمها ، ويمدها بما يحفظ وجودها وبقاءها وليس هو بحاجة إلى من يرزقه ويُطعمه .

وكيف يصح أن يكون مصدر العطاءِ محتاجا إلى عطاءٍ ؟ وكيف يتخذ المضلون من البشر أولياءَ مع الغَنِيِّ الحميد الفعال لما يريد ؟

(قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) :

أى قل يامحمد - بعد إيراد هذه الآيات والحجج على وجوب عبادة الله وحده وعدم اتخاذ غيره وليًّا - إنِّى أُمِرتُ من ربى : أن أكون أول من أسلم إليه وانقاد لدينه . من هذه الأُمَّة التى أنا رسولُها وداعيها إلى الحق . فلستُ أدعو إلى شيءٍ لا آخذ به . بل أنا أولُ مؤمن بهذا الدين ، وأول عامل بما جئت به من شريعة وأحكام .

وكما أُمِرتُ أن أكون أولَ من أسلم . قيل لى : لا تكوننَّ من المشركين : فلا تطمعوا فى استجابتى إلى مادعوتمونى إليه من الإشراك بالله تعالى .

وبعد أن أقنطهم الله منَ مشاركة الرسول لهم فى شركهم ، أمر الله رسولَه : أن يبين لهم سوءَ عاقبة من عصى الله وأشرك به . فقال تعالى :

١٥ - (قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) :

أى قل يامحمد، لقومك الذين دعَوْك إلى مشاركتهم فى عبادة آلهتهم : إنى أخاف عذاب يوم عظيم ؛ يشيب فيه الوِلْدان ، إن أجبتكم إلى مادعوتمونى إليه من عصيان ربى .

وإذا كان خوف النبى صلى الله عليه وسلم من العذاب على المعصية منتفيا - لانتفائها بالعصمة - فخوف الإجلال والتعظيم ثابت له - عليه السلام - دائمًا .

١٦ - (مَن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ) :

أى من يُدفعْ عنه هذا العذاب - فى ذلك اليوم ويَسلم من الوقوع تحت وطأته - فقد رَحمه الله الرحمة العُظمى . وهى النجاة من العذاب ، والتمَتُّع بالنعيم المقيم . وذلك هو الفوز المبين الذى لا فوز بعده .

(وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾) .

المفـردات :

(وَإِن يَمْسَسْكَ) : المس ؛ الإصابة . يُقال : مَسَّهُ السُّوءُ والكبر والعذاب والتعب أى أصابه ولحق به .

(بِضُرٍّ) : الضُّرُّ ؛ البلاء ، كالمرض والفقر ، وفقدان الأحباب .

(بِخَيْرٍ) : الخير ؛ ماكان فيه منفعة حاضرة أو مستقبلة .

(وَهُوَ الْقَاهِرُ) : القَهْرُ ؛ الغلبة . والقاهر : الغالب .

(أَكْبَرُ شَهَادَةً) : شهادة الشيء ؛ حضوره ومشاهدته . والشهادة به : الإخبار به عن علم ومعرفة واعتقاد مبنى على المشاهدة ؛ بالبصر أو بالعقل والوجدان .

(لِأُنذِرَكُم بِهِ) : الإنذار ؛ التخويف .

التفسير

١٧ - (وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ...) الآية .

بعد أن بَيَّنَ اللهُ سبحانه وتعالى ، أَنّ صرف العذاب عن العبد ، والفوزَ بالنعيم - بعده - من رحمة الله به فى الآخرة - بَيَّنَ كذلك : أن الأَمرَ فى الدنيا والتصرُّفَ فيه ، إنما هو لله الولى الحميد .

والمعنى : وإن يُصبْك - أيها الإنسان - ضُرٌّ كمرض وفقر وحزن وغير ذلك من البلايا التى يَخْتَبِرُ اللهُ بها عبادَهُ ، فلا يرجى لكشف هذا الضرِّ غيره . إذ لا صارف ولا رافع له إلاهو . لأنه مما قضى به . ولا رادّ لقضائه الذى قضاه ، إلا ماكان من لطفه ورحمته اللذَيْنِ يحفان بقضائه . فيمضى الأمر فيه على ما قضاه . ومن لطف الله بعبده أن يستقبل هذا القضاء برضا ، ويحتمله فى صبر .

وإن يمسسك بخير - كصحة وغنى وقوة وجاه - فهو وحده قادر على حفظه عليك وإدامته لك ، كما قدر على إعطائك إياه . فهو على كل شيءٍ قدير .

فعلى المؤمن الصادق فى إيمانه : أَلّا يطلب شيئًا من أُمور الدنيا والآخرة : من كَشْفِ ضُرٍّ ، وصَرْفِ عذاب ، أو إيجاد خير ، ومَنْح ثواب ، إلا من الله تعالى وحده ، دون غيره من الشفعاء والوسطاء ، والمتكهنة والأولياء الذين لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرًّا .

عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال : « كُنْتُ خَلْفَ النَّبِىِّ صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، يَوْمًا فَقَالَ : يَاغُلَامُ ، إِنِّى أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ : احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ . احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ . وَإِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ . وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ . وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَىْءٍ ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَىْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ تَعَالَى لَكَ . وَإِنِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَىْءٍ ، لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَىْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ . رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ »[١] .

ومن دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم : « اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ ، وَلَا مُعْطِىَ لِمَا مَنَعْتَ ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ »[٢] .

وبعد أن أثبت الله لنفسه كمال القدرة ، أثبت كمال السلطان والتسخير لجميع عباده ، والاستعلاء عليهم ، مع كمال الحكمة والعلم المحيط بخفايا الأمور ، ليرشدنا إلى أن مَن اتخذ غيرَه وليًّا من دونه ، فقد ضلَّ ضلالا بعيدا . فقال :

١٨ – (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ) :

أى وهو الغالب لعباده ، المقتدر عليهم : يَملكهم ولا يَملكونه . ويَقضى عليهم ولا يَقضون عليه . ويُعطى ويَمنع ، ويُعز ويُذلُّ . وهو الحكيم فى تدبير مراده وتنفيذه ، الخبير بمواضع نعمه ونقمه . فلا تخفى عليه خوافى الأمور ولا بواديها ، ولا يقع فى تدبيره خلل ، ولا فى حكمته دخَل[٣] .

ولما كان المشركون لايستجيبون إلى الحق الذى دعاهم إليه رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، ولايشهدون بصحة نُبُوَّته ، أنزل الله عليه الآية التالية :

---

(١) رواه الترمذى ، وقال : حديث حسن صحيح .

(٢) أى ولا ينفع صاحب الغنى منك غناه .

(٣) الدَّخَل : الفساد .

١٩ـ (قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ . . .) الآية .

جاء فى القرطبي : عن الحسن وغيره ، فى سبب نزول هذه الآية : أن المشركين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : مَن يشهدُ لك بأنك رسولُ الله ؟ فنزلت الآية .

والمعنى : قل يامحمد لقومك :أى شيء شهادته أكبر شهادة وأعظمها ، وأجدر أن تكون أصحها وأصدقها ؟ وما الشاهد الذى تكبرون شهادته . وتنزلون على ما يشهد به .

ولم يمهلهم الله أن يجيبوا ، لأنهم لايجيبون إلا ضلالا ، ولايقولون إلا زُورا وبهتانا . بل تلقاهم بالشاهد الذى لايصح أن تُرَدَّ شهادته ، لأنه الشاهد الذى لايجوز أن يقع فى شهادته كذب ولا زور ، ولا خطأٌ . والذى يحكم ولا معقب لحكمه ، ويقضى ولا رَادَّ لقضائه إنه هو الله رب العالمين . هو الشهيد بينى وبينكم . وقد أُوحى إلىَّ هذا القرآنُ : شاهدًا من لَدُنْهُ برسالتى ، لأُنذركم به عذاب يوم عظيم ، ولأُنذر كلَّ من يبلُغه القرآن – إلى يوم القيامة . وفى هذا ، دلالة على عموم الرسالة ، وأن أحكام القرآن : تَعُمُّ الثَّقَلَيْن إلى يوم الدين .

أخرج ابن مردويه ، وأبو نعيم عن ابن عباس مرفوعا قال : « ومن بلغه القرآن فكأنما شافهتُه به » ثم قرأ (وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ) .

وقد أشارت الآية : إلى وجوب تبليغ رسالة النبي صلى الله عليه وسلم .

وقد جاء ذلك – صراحة – فيما رواه البخارى ، عن عبد الله بن عمرو ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « بَلِّغُوا عَنِّي ، وَلَوْ آيَة . . . » الحديث .

وشهادة الله لرسوله : تتجلى فيما يأتى :

١ ـ شهادة كُتُبِ اللهِ السابقة لنبيه ، وبشارة الرسل السابقين به .

ولا تزال هذه الشهادة ماثلة فى كتب اليهود والنصارى ، وهم يُؤَوِّلُونها .

٢ - تأْييد الرسول بالآيات الكثيرة ، التى من أعظمها القرآن الخالد . فهو المعجزة الدائمة : بما ثبت من عجز البشر عن الإتيان بسورة من مثله . وبما اشتمل عليه من أخبار الغيب ، ووَعْدِ الرسول والمؤمنين بِنَصْرِ الله .

٣ - إخباره بها فى كتابه ، بنحو قوله تعالى : « مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ . . . »[1] وقوله سبحانه : « إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ... »[2] .

(ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾) .

التفسير

٢٠ - (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ...) الآية .

رُوِىَ أن الكفار ، سألوا اليهود والنصارى ، عن صفة محمد صلى الله عليه وسلم . فأنكروا أن فى التوراة والإنجيل شيئا يدل على نُبُوَّتِه .

فَبيَّن الله فى الآية السابقة : أن شهادة الله على صحة نبوته ، كافية فى ثبوتها وتحققها .

---

(١) الفتح ، من الآية الأخيرة . (٢) البقرة ، من الآية : ١١٩

ثم بَيَّنَ فى هذه الآية . كَذِبَهم فى ادعائهم أنهم لا يعرفون محمدا صلى الله عليه وسلم فهم يعرفونه بالنبوة والرسالة كما يعرفون أبناءهم .

فقد رُوِىَ أن النبي – عليه الصلاة والسلام – لما قدم المدينة ، وأسلم عبد الله بن سلام . قال له عمر : إن الله أنزل على نبيه بمكة :

(الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ...) الآية . فكيف هذه المعرفة ؟

قال عبد الله بن سَلَام : ياعمر ، لقد عرفتُه – حين رأيتُهُ – كما أعرف ابنى . ولأنا أشدُّ معرفة بمحمدٍ منى بابنى . فقال عمر : كيف ذلك ؟ فقال : أشهد أنه رسول الله حقًّا . ولا أدرى ما تصنع النساءُ .

والمعنى : الذين آتيناهم الكتاب من اليهود والنصارى ، يعرفون محمدا النبيَّ الأُمىَّ خاتم الرسل بحليته ونعته الثابت فى التوراة والإنجيل ، معرفةً مستيقنة ، كما يعرفون أبناءهم بحلاهم ونعوتهم . ولو أنهم كانوا مؤمنين بالله والكتاب الذى معهم ، لآمنوا بمحمد وبالكتاب الذى معه . ولكنهم كتموا شهادة الحق : بَغْيًا وحَسَدا . فخرسوا ولم ينطقوا . أو نطقوا : كَذِبًا وبهتانا .

(الَّذِينَ خَسِرُوٓا أَنفُسَهُمْ) : بإفسادهم فطرتهم التى تهديهم إلى الحق ، وإعراضهم عن دلائل النبوة .

(فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) : بسبب ذلك . لا بسبب فقدان العلم والمعرفة . لأن الله أخبر عنهم : أنهم على علم ومعرفة .

٢١ – (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ . . .) الآية .

أفادت هذه الآية : أنه لا يوجد أظلم ممن اختلق الكذبَ على الله ، أو كذَّب بآياته .

فأما اختلاق الكذب على الله : فهو كزعمهم . أن الملائكة بنات الله ، وأن لله شركاء يَعْبُدُونَ معه .

وأما تكذيبهم بالآيات : فهو شامل لما حدث منهم من تكذيبهم بآياته المنزلة كالقرآن ، أو بآياته الكونية الدالة على وحدانيته ، أو التى يؤيِّد بها رسله .

ثم بيَّنَ سبحانه ، عاقبة الظالمين وسوء منقلبهم فقال :

(إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) :

أى إنَّ شأن الله – فى تدبيره – أنه لا يفلح الظالمون . فلا ينتصرون فى دنياهم ، ولا ينجون من العذاب فى أخراهم .

وإذا كان هذا حال الظالمين ومآلهم ، فكيف تكون عاقبة من افترى على الله الكذب وكذب بآياته ، فكان أظلم الظالمين ، وأبعد الناس عن رحمة رب العالمين .

٢٢ – (وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ) :

أى : واذكر لهم – أيها الرسول – يوم نحشرهم جميعا ، على اختلاف درجاتهم فى ظلم أنفسهم وظلم غيرها . ثم نسأل الذين أشركوا – وهم أشد الناس ظلما – أين الشركاء ؟

سؤال تقريع وتشهير – الذين كنتم تزعمون فى الدنيا . أنهم أولياؤكم من دون الله ، وأنهم يقربونكم إليه زلفى ، ويشفعون لكم عنده ؟ فأين هم ؟

لقد ضَلُّوا عنكم وخاب أملكم فى شفاعتهم .

وصدق الله إذ يقول : « ... وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ »[1] .

٢٣ – (ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ) :

يتلفت القوم إلى الشركاء ، فلا يجدون لهم أثرا . ويخيل إليهم – من ضلالهم – أن فتنتهم وكفرهم الذى لزموه مدة أعمارهم ، وافتخروا به – قد اختفى . وأنهم لن يؤخذوا بهذا الجرم الذى لا يقوم شاهد على وجوده . فيقولون . كذبا وبهتانا : والله ربنا ، ماكنا

---

(١) الأنعام ، من الآية : ٩٤

مشركين ... ليفروا بذلك من الموقف الرهيب : تَوَهُّمًا منهم ، أن ذلك يُفْلِتُهُم ؛ ولاسيا أنهم رأوا سعة رحمة الله ، وشفاعةَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم للمؤمنين .

قال ابن عباس : يغفر الله تعالى لأهل الإخلاص ذنوبهم . ولا يتعاظم عليه ذنب أن يغفره . فإذا رأى المشركون ذلك ، قالوا : إن ربَّنا يغفر الذنوب . ولا يغفر الشرك . فتعالَوْا نَقُل : إنا كنا أهل ذنوب ولم نكن مشركين . فقال الله تعالى : أمَا إذ كتموا الشرك ـ فاختِمُوا على أفواههم فيختم على أفواههم . فتنطق أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون فعند ذلك ، يَعْرِف المشركون : أن اللهَ لا يُكْتَمُ حديثا . فذلك قوله : « ... وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا »[1] .

قال أبو إسحاق الزجاج : تأويل هذه الآية لطيف جدا . وذلك أنه تعالى ، بَيَّنَ كَوْنَ المشركين مفتونين بشركهم ، متهالكين فى حبه . فذكَر أن عاقبة كفرهم الذى لزموه أعمارهم وقاتلوا عليه ، وافتخروا به ، وقالوا : إنه دين آبائنا ، لم يكن حين رأوا الحقائق ـ إلا أن تبرَّأوا من الشِّرْكِ ، وأقسموا على عدم التدين به .

ونظير هذا فى اللغة : أن ترى إنسانا يحب شخصا مذموم الطريقة . فإذا وقع فى محنة بسببه تَبرَّأ منه . فيقال له : ماكانت عاقبة محبتك لفلان : إلا أن تبرَّأْتَ منه وتركته.

٢٤ ـ (انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ...) الآية .

هذا تعجيب من قولهم المفضوح ، وكذبهم الصريح ، بنفى أنهم أشركوا فى الدنيا على حين أن حقيقة إشراكهم معروفة لربهم . وإن كذبوا على أنفسهم بنفيها .

(وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ) :

وغاب عنهم ما كانوا يختلقونه من أُلوهية أصنامهم ، وشفاعتها لهم . فلم يكن لذلك اعتبار فى نفوسهم ، حين أقسموا متبرئين من شركهم .

---

(١) النساء ، من الآية : ٤٢

(وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾) .

المفـردات :

(أَكِنَّةً) : الأَكِنَّة ؛ الأَغطية . جمع كنان .

(وَقْرًا) : الوقر بالفتح ؛ الثِّقَل فى السمع ، يقال : وَقَرَتْ ووَقِرَتْ أُذنُه من باب تَعِب ووعد : صَمَّتْ وثَقُل سمعها .

(يُجَادِلُونَكَ) : يخاصمونك وينازعونك .

(أَسَاطِيرُ) : أباطيل .

(وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ) أى : يبعدون عنه .

التفسير

٢٥ - (وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا . . .) الآية .

بيان لما صدر عن المشركين فى الدنيا ، من أُمور منافية للإِيمان ، معبرة عن تعمقهم فى الكفر .

جاءَ فى سبب نزول هذه الآية ، ما رُوِىَ عن ابن عباس . قال : حضر عند النبىّ صلى الله عليه وسلم ، أَبو سفيان ، والوليد بن المغيرة ، والنضر بن الحارث ، والحرث بن عامر ، وأَبو جهل

فى جمع كثير . واستمعوا إلى النبىِّ صلى الله عليه وسلم . وهو يقرأُ القرآن . فقالوا للنضر يا أبا قتيلة[1] ، ما يقول محمد ؟ فقال : والذى جعل الكعبة بيته ، ما أدرى ما يقول ، إلا أنى أراه يحرك شفتيه ويتكلم بأساطير الأولين . مثل ما كنت أُحدثكم به عن القرون الماضية ـ وكان النضر كثير الحديث عن القرون الأُولى . يحدث قريشا بما يستملحونه ـ قال أبو سفيان : إنى لأَرى بعض ما يقول محمد حقًّا . فقال أبو جهل : كَلَّا . . . فأنزل الله الآية :

(وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا) :

أى ومنهم من يستمع إليك أيها الرسول ، استماع استعلاء وانتقاد ، لا استماع تدبر وانقياد حين تتلو القرآن : داعيا إلى توحيد الله . ولهذا قد جعلنا على قلوبهم أغطية من الكبر والعجرفة ونعرة الجاهلية . فلم تعد تَبْلُغُ كلماتُ الله مواطنَ القبول من قلوبهم ، ولا تنفذ أسماعهم ، لأَنهم لايريدون إلا ذلك .

وفى هذا تشبيه للحَجْبِ والموانع المعنوية ، بالحجب والموانع الحسية .

فالقلب الذى لايقبل الحق ولا يتدبره ، كالوعاء الذى وُضِع عليه الغطاءُ فلا يدخل فيه شىءٌ . والآذان التى لا تنتفع بما يصل إليها من نصائح ، كالآذان المصابة بالثقل والصمم فسمعها وعدمه سواءٌ .

(وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا) :

أى وإن يروا كل آية من الآيات الدالة على صحة نبوتك ، وصدق دعوتك ، لا يؤمنوا بها عنادا واستكبارا ، مع وضوح حجتها ، وظهور الحق فيها ؛ لأَن قلوبهم وأَسماعهم مستغرقة فى أَنانيتهم وعنجهيتهم ، فلا تستجيب للإيمان ، ولا تتقبل الهدى .

---

(١) فى تفسير الخازن فى رواية الكلبى : « ياأبا قتيبة » .

(حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ) :

أى بلغ عنادهم إلى وقت مجيئهم إليك مجادلين منكرين الحق . حيث يقولون : ماهذا الذى جئتنا به ، إلا أَباطيلُ السابقين وخرافاتُهم : نَقَلْتَها إلينا من كُتُبِهم .

فلم يكن مجيئهم للنبى صلى الله عليه وسلم ، طلبا لحق ، أو تعرفا على خير ، بل للمماحكة والمجادلة ، لأَنهم لم يتقبلوا ما فى القرآن من أنباء الغيب ، إلَّا على أنها حكاياتٌ وخرافاتٌ ، تُسَطَّرُ وتُكْتَبُ . كغيرها .

وذكر نعتهم بالذين كفروا ، وأظهر الفاعل ولم يضمره فى (يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا) تقريرٌ لكفرهم ، لإيغالهم وغلوهم فى اللدد واللجاج .

٢٦ - (وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ...) الآية .

أى وأُولئك المشركون الكافرون المعاندون للنبي ، الجاحدون لنبوته ، لم يكتفوا بتكذيبهم وإعراضهم عن الدين الذى جاءَ به ، وإنما تجاوزوا ذلك إلى صدٍّ غيرهم ، والوقوف فى وجه مَن يطلبون الهدى منه . هم يبالغونَ فى مقاطعته والنَّأْى عنه : مستكبرين عن الإيمان به .

(وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ) :

أى وما يهلكون أحدا بهذا التصرف الأَحمق ، والجحود المطلق - إلا أنفسَهم ، حيث أَوْرَدُوها موارد الدمار والبوار . وما يشعر هؤلاءِ الجانون على أنفسهم تلك الجناية - أَنهم إلى هذا المصير صائرون ، لِمَا استولى عليهم من غفلة ، وما غشيهم من ضلال .

(وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾) .

المفردات :

(إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ) : حُبِسُوا عليها يوم القيامة . ومن معانى الوقف : الحبس .

(بَدَا لَهُمْ) : ظهر لهم .

التفسير

٢٧ - (وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَالَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـآيَاتِ رَبِّنَا ...) الآية .

بعد أن بَيَّن سبحانه - فى الآيتين السابقتين - حال أُولئك المشركين الكافرين الذين يستمعون إلى النبى صلى الله عليه وسلم - وما يرتل من كلمات الله - ولا ينتفعون بما سمعوا ، بيّن - فى هاتين الآيتين - بعضَ ما يكون من مآل أمرهم فى الآخرة . فقال :

(وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ) :

(لَوْ) : شرطية حذف جوابها ، لتذهب النفس فى تصوره كل مذهب . وذلك أبلغُ من ذكره .

والمعنى : ولو ترى يامحمد أو أيها السامع ، ما يحل بأُولئك المكذبين المعاندين ، من الفَزَع والهَوْل، حين يُحبسون على النار ، مشرفين عليها - لرأيت شيئا مخيفا ؛ لا يحيط به الوصف وهَوْلًا مفزعا ؛ لا تُدْرِكُه العبارة . وحين يعاينون هذه الأهوال، يَتَمَنَّوْنَ الرجوعَ إلى الدنيا ، والإيمان بما كذبوا به فى حياتهم .

وفى (عَلَى النَّارِ) : مايُشْعِرُ بأنهم سيسقطون فيها ، وتبتلعهم ، وأنه لا مفر من ذلك.

مما يصور لنا مشهدا مخيفا ، تقشعر منه القلوب والأبدان .

(فَقَالُوا يَالَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) :

أى ويقول هؤلاءِ المشركون – وقد تَدَلَّوْا على النار – ليتنا نردُّ إلى الدنيا ، حتى نتوب ونعملَ صالحا ، ولانكذِّبَ بآيات الله وحججه ، التى نَصَبها دلالة على وحدانيته وصدقِ رسله بل نكون من المصدقين به وبرسله ، ومن المتبعين لأَمره ونهيه .

وفى تَمَنِّيهم الرد ؛ دليل على أَنهم يلجأُون حتى إلى المستحيل ؛ وهو عودتهم إلى الدنيا ، لشدة الضيق والحرج الذى هم فيه .

٢٨ – (بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ . . .) الآية .

إبطالٌ لأَمانيِّهم وَتيئيس لهم منها : لأنها أمان ناشئة عن الفزع والهلع ، من هذا الموقف الذى هم فيه ، حين ظهر لهم ما كانوا يُخفون من البعث والجزاءِ ، حيث كانوا ينكرون ذلك .

(وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ) :

من الشرك والكفر ، والمكر والمعاصى ، لسوءِ ما فطروا عليه من سوءِ طوية ، وخبث نية ، ودعوى جاهلية .

(وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) :

فيما تضمنه تمنيهم من الوعد بترك التكذيب بآيات الله ، والإِيمان بالله ورسله ؛ لأَنهم لم يكونوا صادقين فى ادعائهم الإِيمان بعد رجوعهم إلى الدنيا ، وإنما دفعهم إلى هذا ، ما شاهدوه من الأَهوال والشدائد ، والبعد عنها بأَية وسيلة .

ومعنى هذا أن الكفر فيهم غريزة .

٢٩ – (وَقَالُوٓا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ) :

أى لو رُدُّوا إلى الدنيا ، لعادوا لِمَا نُهُوا عنه من الكفر وسَيِّءِ الأَعمال ، ولأَنكروا البعث والحساب والجزاءَ مرة أُخرى . وكأَنهم لم يَرَوْا ما عاينوه من أَحوال الآخرة ، التى أَولها البعث والنشور .

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ .

المفردات :

(جَآءَتْهُمُ السَّاعَةُ) : الساعة ؛ القيامة .

(بَغْتَةً) : فَجْأَة .

(يَا حَسْرَتَنَا) : الحسرة ؛ الندم الشديد على ما فات .

(عَلَى مَا فَرَّطْنَا) : التفريط ؛ التقصير .

(أَوْزَارَهُمْ) : آثامهم الكبيرة .

(لَعِبٌ وَلَهْوٌ) : اللعب واللهو كلاهما ؛ الاشتغال بما لا يفيد العاقل ولا يهمه .

التفسير

٣٠ - (وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ . . .) الآية .

وهكذا ، تتوالى المشاهد يوم القيامة .

فمن مَشْهَدِ الحَشْرِ والمحاكمة : « وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ » إلى مشهد الحكم فى جنايتهم التى جَنَوْها على أنفسهم : « وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ . . » إلى هذا المشهد الذى يتضمن إتمام المحاكمة .

(وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ) :

أى ولو ترى – أيها المتأمل – هؤلاء المعاندين المكذبين – وقد حبسوا على ما يكون من قضاء ربهم فيهم – لهالك أمرهم ، ولرأيت ما لا يحيط به نطاق الكلام . وجعلهم موقوفين على ربهم ؛ لأن من تقفهم الملائكة وتحبسهم فى موقف الحساب ، امتثالا لأمر الله فيهم كما قال : « وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ »[1] يكون أمرهم مقصورا على الله حيث لا سلطان فيه لغيره عز وجل « يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ »[2] . فهم وقد انتهى بهم المطاف إلى ما لا يحيط به الوصف لن يقتصر أمرهم على ما هم فيه من بلاء وعناء بل يسألون سؤال تأنيب وتبكيت .

(عَلَىٰ رَبِّهِمْ) : (عَلَىٰ) هنا ؛ بتقدير مضاف ، أى وقفوا على تعذيب ربهم ، وما أعدّ لهم .

(قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ) : القائل هو الله تعالى أى أليس هذا الجزاء – وما أنتم فيه – هو الحق الذى كنتم به تكذبون ؟

وفى حسرة أليمة وندم شديد :

(قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا) :

أى قالوا : بلى . أى ما نحن فيه من الشدائد والأهوال ، حق نستحقه ، ولا شك فيه .

وهكذا كان جوابهم . . . اعترافا مؤكدا – باليمين – بما أنكروه فى الدنيا .

وبذلك شهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين .

(قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ) :

أى فباشروا العذاب ، وانغمسوا فى آلامه وأهواله ، بسبب كفركم الذى كنتم عليه مصرين عليه ، دائبين فيه .

وفى المشهد السابق (وُقِفُوا عَلَى النَّارِ) : وهنا وقفوا على غضب ربهم ، ما يدل على أن غضب الله ، آلم من نار جهنم ، فلو لم يكن منه إلا حرمانهم من رؤيته والتمتع برضوانه ، لكفى .

---

(١) الصافات ، الآية : ٢٤ (٢) الانفطار ، الآية : ١٩

٣١ ـ (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَآءِ اللهِ . . .) الآية .

أى قد خَسِر وخاب سَعْىُ أُولئك الكفار ، الذين كَذَّبُوا بالبعث ، وانكشف لهم ما كانوا فيه من غفلة وضلال .

(حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً) :

أَى ما زال هؤُلاءِ مُصِرِّين على التكذيب ، إلى أن جاءَتهم الساعة ـ فجأَة ـ على غير انتظار .

(قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا) :

أَى قالوا متحسرين بـأُسلوب النداءِ ؛ للإِشارة إِلى شدة وَقْع المفاجأَة عليهم .

ولذا نادوا الحسرة : نداءَ تفجُّع . وقالوا : إن كان لك وقت فهذا وقتك ، حيث قد فَوَّتوا على أَنفسهم العمل بما كان ينجيهم من أَهوال هذا اليوم ، والضمير فى (فِيهَا) يعنى : الحياة الدنيا .

(وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ) :

أَى يحملون ذنوبهم وخطاياهم على ظهورهم .

وفى هذا إيماءٌ إلى شدة ما يقاسونه من صنوف العذاب .

(أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ) :

أَى بئس ما يحملون .

والمراد : ذم عملهم الذى ارتكبوه فى الدنيا ، حيث لم ينتفعوا به ، بل أَوصلهم إلى الهلاك .

٣٢ ـ (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ . . .) الآية .

أَى وما اشتغال المكلَّف بِمُتَعِ الحياة الدنيا ، وصرف قواه إِلى لَذَّاتها ـ دون الالتفات إِلى شئون الآخرة ـ إِلا اشتغال بما لا نفع فيه .

وإنما تكون الحياةُ الدنيا جادةً مفيدة ، إذا التفَتَ فيها أصحابُ العقول ، إلى العمل الطَّيب المثمر ؛ الذى يجمع بين سعادَتَى الدنيا والآخرة .

(وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ) :

أى ولَلحياة الآخرة : أكثر نفعا ، وأعظم أجرًا للذين تركوا المعاصى فى الدنيا ، وعملوا لنيل الثواب فى الآخرة ، التى هى الغاية ، والدنيا وسيلة لها .

(أَفَلَا تَعْقِلُونَ) :

أى أتغفلون عما فى الآخرة من ثواب ونعيم ، فلا تعقلون أن الانصراف إلى الدنيا مُهلِك ، وأن العمل للآخرة والإقبال عليها ، هو السعادة والنجاة ؟

(قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾) .

المفردات :

(لَيَحْزُنُكَ) : الحُزْنُ ؛ الشعور بالألم عند وقوع مكروه .

(يَجْحَدُونَ) : الجحود والجحد ؛ نفى ما فى القلب إثباته أو إثبات ما فى القلب نفيه .

(لِكَلِمَاتِ اللهِ) : المراد من كلمات الله ؛ وعده للمؤمنين ، ووعيده للكافرين .

(نَبَإِ) : النبأُ ؛ الخبر ذو الشأن العظيم .

(كَبُرَ عَلَيْكَ) : أى شَقَّ عليك .

(نَفَقًا) : النَّفَق ؛ السِّرْب فى الأَرض ، وهو حفرة نافذة لها مدخل ومخرج .

(أَوْ سُلَّمًا) : السُّلَّم؛ الدَّرَج مشتق من السلامة ؛ لأنه يُسْلِمُكَ إلى الوضع الذى تريده.

(الْجَاهِلِينَ) : الجهل هنا ؛ ضد العلم ، والمراد منه : الجهل بما ينبغى العلم به .

التفسير

٣٣ - (قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ . . .) الآية .

بعد أن بَيَّنَ القرآن - فيما سلف من الآيات - أنها نزلت فى بيان موقف المشركين من الدعوة الإسلامية ، وكثرة ما قالوا فى رد هذه الدعوة ، جاءت هذه الآيات تُبَيِّنُ أَثرَ هذا العناد فى نفس النبى صلى الله عليه وسلم ، وحُزْنَهُ على عدم إيمانهم . فقال بيانًا لذلك ، وتسليةً له صَلَّى الله عليه وسلم :

(قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ . . .) إلى آخر الآيات ... ومعنى :

(قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ) :

أى قد أحاط علمنا بِحُزْنِك مما يقوله لك هؤلاء المعاندون ، وأنك مشفق عليهم من لَجاجهم وشَططهم . وهذا بيان لعظمة الإشفاق النبوى الكريم ، وتسلية له . فليس المراد الإخبار بالعلم ، فالعلم ثابت لله تعالى . ولكن المراد أننا معك أيها الحزين الآسف على كفر قومه وأهله .

(فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ) : لذاتك ، فقد كنت الأَمِين . ولكن ما يحدث منهم الآن ، هو تكذيب لنا ؛ لأَنك رسولُنا ومُبلِّغٌ عنا .

(وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ) :

أى ولكنهم - بعدم الاستجابة لآيات الله - قد بلغوا الغاية فى الظلم والجحود والتَّنكُّر لك والافتراء عليك .

٣٤ـ (وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا . . .) الآية .

هذه الآية من تمام تسلية النبي – صلى الله عليه وسلم – ببيان ما عاناه الرسل السابقون : بالدعوة ، حتى جاءهم نصر الله ، واستقر الأمر لهم : بإهلاك أقوامهم . فإن عموم البلوى مما يعين على احتمالها . فاصبر كما صبروا ، حتى يأتيك النصر . كما أتاهم .

(وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ) :

أى : إن كلمات الله لا تُبدَّل ، وأحكامَه لا تُنْقَض ، ووعدَه لا يَتخلَّف . وسُنَنَه ونواميسَه لا تتخلف . قال تعالى :

« وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ . إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ . وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ »[1] .

(وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ) :

أى ولقد أتاك من أخبار الرسل ، ما تسكُن به نفسُك ، ويطمئن به قلبُك ، ويَثْبُت به فؤادُك : « وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ . . . »[2] .

٣٥ـ (وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ . . .) الآية .

ومع ذلك يامحمد ، إن كان نفورهم وإعراضهم ، شاقًّا على نفسك ، يتزايد ويكبر أثره شيئا فشيئا ، أى ، ولم يَشْفِكَ ما سقناه لتسليتك فَالْتَمِسْ ما فى طاقتك لإيمانهم – مهما استحال – نَفَقًا فى الأرض ، أو سُلَّمًا فى السماء ، لِتَهْدِيَهُم بآية فعالة فى نفوسهم . فافعل .

وقد آتيناك من الآيات ، ما يكفى لإيمان مَن أَلْقى السمع وهو شهيد : « أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ . . . »[3] .

---

(١) الصافات ، الآيات : ١٧١–١٧٣

(٢) هود ، من الآية : ١٢٠

(٣) العنكبوت ، من الآية : ٥١

(وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى) :

أى ولو شاء اللهُ هدايةَ الناس جميعا ، لجمعهم على ذلك . ولكن لم يُرِدْ ذلك ، لحكمةٍ لا يعلمها إلا هو . ففى علمه الأزلى : أن فريقًا منهم يختار الكفر ، ولو جاءتهم كلُّ آية .

(فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ) :

أى فلا تَذهبْ نفسُك عليهم حسرات ، لعدم إيمانهم حتى لا تكون من الجاهلين ، الذين يشتد حُبُّهم وحنانُهم بذويهم وأهليهم إلى هذا الحد .

« إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ . . . »[1] .

(١) القصص ، من الآية : ٥٦

